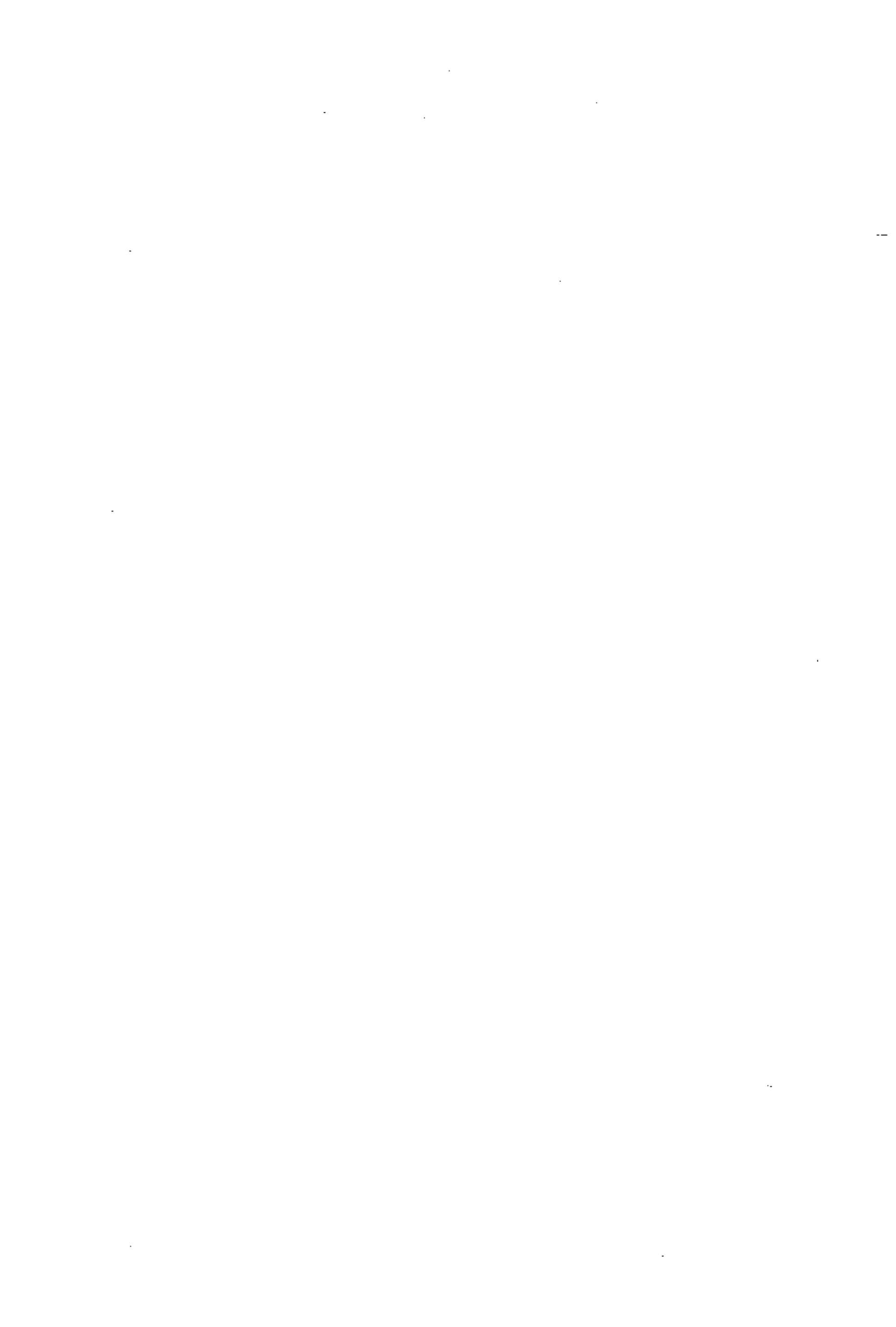
من يشتري.. عمري!!



روايـــة

أحمـد فـريد

مـن يـشـتـري .. عـمـري!!

الناشـر

دار قبـــاء

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

اسم الكتـــاب: من يشتري .. عمري!!

اسم المـؤلـف : أحمد فريد

سنة النشـــر : 2008 م

رقـم الإيـداع : 2008/16891

الترقيم الدولى : 9 - 537 - 303 - 977

الناشــر

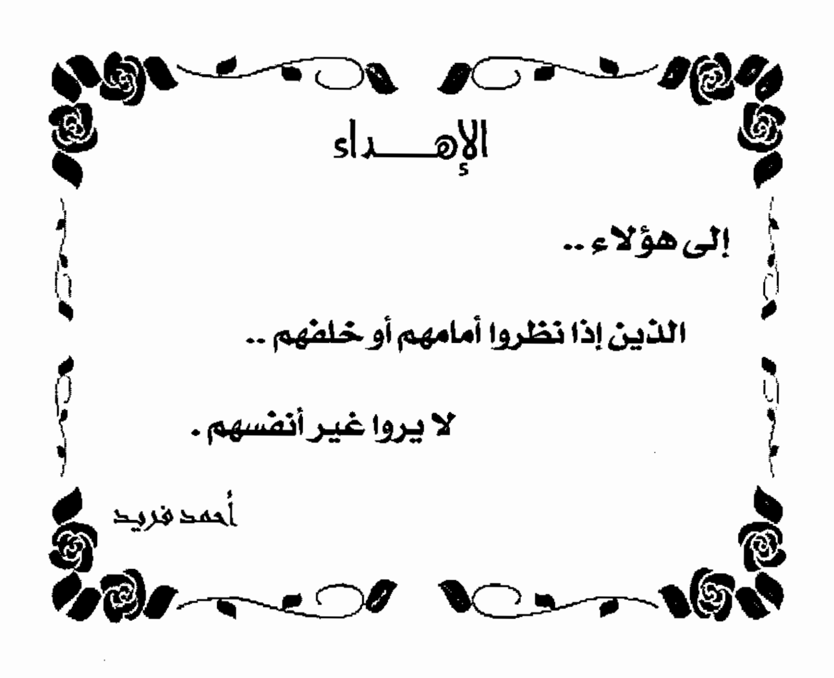
دار قـــباء

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

الإدارة : (16) عمارات العبور - شارع صلاح سالم - الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: 02/22621365

محمول : 0123171744 - 0123171722 - 0123140315



الإهـــداء

إلى هؤلاء ..

الذين إذا نظروا أمامهم أو خلفهم ..

لا يروا غير أنفسهم .

أحمد فريد





جلس يتأمل رحيل أشعة الشمس من فوق سطح النيل الهادئ، فى لحظة فراغ جرفت أفكاره المشتتة إلى لا شىء وبلا هدف أو مضمون. فموقعه المتميز بالطابق الثانى فى أحد الأبراج المطلة على نهر النيل، جعلته يتعايش مع تفاصيل الأحداث من حوله بكل دقة.. الضوضاء فى أوقات الذروة.. والسكون المخيف قبل بزوغ الفجر.. والسيارات المارقة، والبشر اللاهث إلى كل اتجاه.. و.. إلى عظمة النيل أوشريان الحياة الذى يحمل فوق سطحه أصحاب الرزق المضنى وهم يطوفون بقواربهم الصغيرة المتهالكة فى رحلات صيد يومية ليبيعوا بعد ذلك حصيلة ما يجود به النهر من الأسماك.. وفى نفس التوقيت تتوالى الرحلات القصيرة للبواخر السياحية بانتظام وهى تحمل نوعًا آخر من البشر الذين يتناولون ذات الأسماك وهى مطهية بأشكالها المختلفة. وهم مستمتعين بأنغام الموسيقى الهادئة وبصور الطبيعة الخلابة ولا يخفون إعجابهم بتلك الأسر الصغيرة المعدمة والتى تتكوم داخل القوارب الصغيرة بحثًا عن رزقها.. مجرد الاعجاب المصحوب بتبلد المشاعر أو اللامبالاة،

وكأن تلك الأجساد البشرية المطحونة والمقهورة هى جزء من صخور الشاطئ أو كونهم جزءًا مكمل لتلك الصورة الطبيعية التى أبهرتهم .

وفى هذه اللحظة وجد أحمد فهمى نفسه مضطرًا ودون وعى أن يتخلص من حصار شروده ويتابع قطًا ضالاً يتأهب لعبور الطريق إلى الجانب الآخر، حيث مكان الأبراج الشاهقة، وقد بدا من صورته أنه من الفصائل النادرة والغالية الثمن. كان أكبر حجمًا من أنواع القطط الأخرى ، وبالرغم من ذلك كانت أقدامه تحمل بنيانه بصعوبة من شدة الهزال. له ذيل كذيول الثعالب ورأس يشبه رأس الفهد الصغير وقد تجعدت فروة جسده وبدت وكأنها على ظهر قنفذ، وطمست ألوانه ما بين الأبيض الباهت والرمادى المصبوغ بالوحل.

ازداد الموقف إثارة عندما لاحظ أن القط قد تعمد التوقف عند منتصف الطريق وقد أسقط نظره إلى الأرض فى استسلام مثير، والسيارات تحاول أن تفاديه بصعوبة تجنبًا لأخطار التصادم مع السيارات المارقة الأخرى. وكأن القط قد فقد حواسه كلها فجأة.. لا يسمع ولا يرى ولا يقوى على الحراك .. ولكن الحقيقة بدت غير ذلك .. فالقط يقف بثبات غريب ومدهش بلا خوف أو استجابة إلى أصوات احتكاك إطارات السيارات وهى تحاول تفاديه بالتوقف المفاجئ أو بتحويل اتجاهاتها.

وكأنه غرس أظافره فى أسفلت الطريق بإرادته وإصراره وفى لحظة انتظار لتنفيذ قراره بالانتحار .

تنفس الصعداء عندما لاحظ أحد قائدى السيارات الأجرة عندما انتحى جانبًا بسيارته وهبط منها فى اتجاه القط العنيد وراح يستفذه بحذر بحركات قدميه كأنه يتأهب لضربه لعله يتحرك ولكن القط استمر فى عناده بشكل مثير ومقلق أيضًا، فلعله أصيب بالصرع وأصبح أكثر خطورة عن المعتاد.

وباءت محاولات السائق بالفشل.. وعاد مرة ثانية إلى سيارته وتناول قطعة كبيرة من القماش ثم ذهب إلى القط وأخذ يضربه بها لكى يتحرك إلى الجانب الآخر.. وكانت تلك اللحظات كفيلة لأن يرتبك مرور السيارات وتتابع توقفها مع تجمهر بعض المارة السائرين فى انتظار نتيجة محاولات الرجل مع القط، وفى هذه الأثناء تقدم أحد الشباب من أصحاب البنية المفتولة بالعضلات، وبلا تردد ركل القط بقدمه بكل قسوة ووحشية حتى أن صدى الضربة فى بطن القط كاد أن يخترق أذن أحمد فهمى واهتز بدنه وكأنه هو الذى تلقّى تلك الركلة.

فى هذه الأثناء فقط تحرك القط مقهورًا دون أن يحاول الدفاع عن نفسه أو يبدى تذمرًا. وبدأ يخطو بتؤده إلى الجانب الآخر وبلا أن يلتفت حتى إلى ضاربه.

وبدأت السيارات تتخذ مساراتها، وعاد كل شىء إلى واقعه الأول وكأن شيئًا لم يحدث.. وارتاح أحمد فهمى لنهاية ذلك المشهد مع بقايا امتعاض وقرف من تصرف ذلك الشاب البليد.

وما كاد يستدير من وراء النافذة حتى أفزعه صوت اصطدام قوى بين سيارتين، فعاد مسرعًا يتابع الموقف وإذا به يفاجئ بالقط وقد انتشرت أشلاؤه فوق الطريق بعد أن غافل الجميع وعاد إلى موقعه فى منتصف الطريق، مما يؤكد أنه كان متعمدًا لتنفيذ قراره.. بالانتحار.

وقف جامدًا ومذهولاً من هول المشهد. لم يستطع تحمل بشاعة الموقف والسيارات تمر من فوق أشلاء القط بقصد أو بغير قصد.

وطفر تساؤل مبهم إلى خاطره مع اغروراق عينيه بدمعة حائرة بين جفنيه.

ما الذي دفع هذا القط الأصيل للانتحار؟

ماذا تعرض فى حياته من أحداث، بالرغم من أنه لا يبدو عليه أنه قط ضال وشريد.. كيف هانت عليه حياته، ومن أين أتى بذلك الاصرار وتحدى الجميع.. هل هو هارب من أصحابه، هل كان تائهًا أم مسروقًا ثم ألقى به على طريق الغربة؟!!

قد يكون فقد مكانته كقط مدلل عندما أصابه العجز ونالت منه شيخوخة السنين، فقرر أن يحمل آناته وآلامه وينهى حياته بإرادته وحيدًا كالأفيال بكل كبرياء.

هل تعـرض للمهـانة من أحد .. أم أن أصحابه قد أصابهم مكروه أو غدر بهم الزمان وباتوا لا يتحملون الإنفاق على تدليله؟ هل .. وهل.. أسئلة كثيرة دارت فى ذهن أحمد فهمى وهو يقف متعبًا أمام تلك الصورة غير قادر على الفكاك منها.

كان أحمد فهمى فارع القوام، قوى البنية وله ملامح مصرية صميمة وعينان واسعتان تتميزان بنظرات ثاقبة ووقورة. وشعر رأسه عكس ضوء الفجر بالرغم من أنه لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره. وُلد يتيم الأب، وعاش مع أمه المريضة سنوات طويلة بعد أن أصيبت فى قلبها حزنًا على ابنتها التى أصرت على الهجرة مع زوجها الأجنبى إلى سويسرا طمعًا فى ثرائه وهربًا من صورة الثراء المزيف التى كانت تعيش فيه مع والدتها وشقيقها.

فالشقة كانت إرثًا عن والد سعاد ابنتها وبالرغم من متميز موقعها وارتفاع قيمتها فى الوقت الحالى إلا أن والدته كانت تصر بقوة على عدم بيعها والاستفادة من قيمتها، وذلك حرصًا على ذكرياتها مع زوجها الراحل وأيضًا تخوفًا من غدر الزمان.. ولكنها لم تستطع فى النهاية مواصلة إصرارها بعد أن اشتد عليها الحزن وتمكن منها المرض و.. استسلمت للرحيل مع الموت.

فكان عليه أن يواصل مسيرته وحيدًا بلا أنيس أو رفيق.. وبعد تخرجه من كلية التجارة التحق بالعمل فى إحدى شركات القطاع

العام بمبلغ زهيد لا يكاد يوفر له وسيلة التنقل إلى عمله، فاضطر أن يعمل موظفًا لخزينة إحدى الكافتيريات الراقية التى تطل هى أيضًا على نهر النيل واشتهرت بتجمع صفوة المجتمع ومشاهيره وذلك لقربها من بمنى «ماسبيروا» حيث يرتاد الفنانون والمشاهير لطبيعة ارتباط عملهم به .

هكذا كانت حياته، عمل متواصل لأكثر من ثماني عشرة ساعة يوميًا ما بين فترة الصباح إلى الثالثة ثم رحلة العودة الشاقة من منطقة حلوان إلى مسكنه بما يرافقها من صعوبات واختناقات مرورية ليصل بعدها مهدودًا ومقهورًا عند الغروب إلى منزله الفاخر وليتأهب إلى الذهاب إلى عمله المسائى حتى فجر اليوم التالى ليتعايش مع واقع آخر كأنه عالم ليس له علاقة بوطنه أو بحياته.

تنبه لليل وهو يسطو على كيان الغروب.. وأدرك أنه قد حان موعد الذهاب إلى عمله المسائى، فغادر النافذة ولكنه لم يستطع أن يتخلص من إحساس الاختناق والألم الذى سيطر على وجدانه أمام مشهد مصرع القط الذى اختزن صورته فى أعماقه قبل أفكاره .

وظل على حالته الواجمة، حتى وهو جالس فوق مقعده الصغير أمام الماكينة الخاصة باستخراج كشوف حسابات الرواد مما دفع أحد الزبائن المستديمين أن يسأله بحميمية:

- ماذا بك يا أستاذ أحمد اليوم ؟

التفت نحو الرجل وأدرك أنه محمد بك نعيم أحد أضلاع مجموعة الأصدقاء المختلفين فى مهنهم ولكنهم متفقون جميعهم على ارتياد ذلك المكان ولكل منهم أسبابه وأغراضه.

فابتسم ابتسامة لا معنى لها وهو يجيبه :

- لا شيء يا محمد باشا .. فأنا فقط مرهق قليلاً.

وهنا تدخل عادل نجيب قائلاً باستظراف أقرب إلى السماجة:

- كيف يكتئب أحد وهو فى هذا المكان؟!.. يا رجل أنا أحسدك على موقعك المتميز الذى يسمح لك برؤية كل ما لذ وطاب من مأكل ومن .. ملمس.

وراح يقهقه بمشاركة أصحابه الثلاثة الآخرين.

احتفظ بابتسامته الباهتة دون أن يعلق على كلمات الرجل، ثم أدار وجهه فى اتجاه آخر ليسحب نظرته إليهم وأيضًا ابتسامته من فوق شفتيه.

ولكنه بعد عدة دقائق وجد نفسه يعود إليهم متأملاً وجوههم وهم يتبادلون التعليقات والنكات ومواضيع أخرى ليس لها علاقة من بعيد أو قريب للواقع المحيط بهم.

مجموعة متباينة الصفات والتصرفات.

فمحمد نعيم كان يعمل مهندسًا للاتصالات بدرجة وكيل وزارة

إلى أن قرر الخروج إلى المعاش المبكر قبل موعده بخمس سنوات وذلك لظروف نسجها هو بإرادته .. حيث تغيرت حياته رأسًا على عقب بسبب لحظة طيش أو جنون أو ملل وأيضًا بسبب هوايته الشديدة لمشاهدة أفلام الجاسوسية والمافيا. فهو أب لابن يدرس الطب فى السنة الثانية ولابنة رائعة الجمال وتدرس اللغات الحية بالجامعة الأمريكية وزوج لامرأة محترمة آثرت أن تتفرغ لتربية أبنائها خاصة أنها تعيش حياة رغدة ليس بها منغصات الاحتياج.

وهو أيضًا كان رجلاً ملتزمًا مشهود له بالخلق القويم والصرامة فى رعاية أبنائه .

إلى أن راودته فكرة شيطانيه ساعدته فيها قدرته وإمكانياته الهندسية.. وهو أن يتجسس على أسرته.. فقد بهره بطل فيلم الجاسوسية فى طريقة تحايله على الآخرين.. فقرر أن يتقمص دوره بدافع التسلية وقتل الملل.

وفى خلال أيام قليلة استطاع أن ينفذ فكرته بأن وضع أجهزة التصنت فى كل أرجاء منزله، وراح يختلس الظروف المواتية ليتجسس على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بابنه وابنته وذلك على سبيل المراقبة الأخلاقية ومتابعة نصحهم بالمفروض وبالممنوع.

وساقته محاولاته لأن يكتشف أن ابنه دارس الطب على علاقة وطيدة بفتاة هولندية من خلال مراسلة النت وبقرارهما الزواج على

أن يستكمل تعليمه الطبى بعد تخرجه مباشرة.. كما فوجئ بأحاديث زوجته فى و قت فراغها الطويل مع صديقاتها بالتليفون وهى تردد دائمًا بأنها سوف تنتقل مع ابنتها بعد الزواج فى منزل الزوجية لأنها لا تستطع فراقها وأيضًا لكسر حياتها المملة مع زوجها محمد نعيم الذى أصبح نمطيًا فى حياته وليس حلو المعاشرة. وجاء دور ابنته ليكتشف أنها تضمر أفكارًا غريبة وهمجية بعيدة تمامًا عن طبيعة نشأتها .

وقد أفصح محمد نعيم لأصدقائه الجدد فى حينها عن مأساة تلك اللحظة عندما تخيل حاله إذا ما نفذت أسرته كل مخططاتها وكيف اعتصرته المرارة بعد طول مشواره وهو حريص على تربية أبنائه وتوفير كل الإمكانات لأسرته السعيدة.

فاتخذ قراره بدافع أن الإنسان يعيش الحياة مرة واحدة، وبأنه كان مخدوعًا فى مشاعر أسرته تجاهه. فقام بإنهاء أوراق المعاش المبكر وحصل على المكافأة وترك الجميع بعد أن طلق زوجته غيابيًا وانتقل إلى مسكنه بالعباسية الذى كان يعيش فيه فترة شبابه عندما كان لا يزال طالبًا أو موظفًا صغيرًا قبل زواجه وانتقاله إلى الزمالك. ومنذ تلك اللحظة تبدلت حياته وأقام علاقات الصداقة الجديدة المكونة من عادل نجيب تاجر التجارة كما كان يطلق على نفسه، فهو فى الأصل طبيب بيطرى ولكنه يعمل فى أنشطة مختلفة

منها معمل للفسيخ ومصنع للعطور ومكتب للسمسرة العقارية. أما ثالث المجموعة ورابعها فهما من مستلزمات تلك العلاقات فمهمتهما تنحصر فى منافقة الآخرين والاستفادة التامة بتلك الميزة، فيضحكون على النكات السخيفة ويمدحون الخصال الوضيعة ويبررون ويؤيدون ويرفضون حسب رغبة الطرفين الآخرين اللذين يتوليان الإنفاق على اللقاءات الدائمة.

هكذا غاب أحمد فهمى مع نظرته الشاردة إليهم فى رحلة ذكريات عن تلك الصحبة العجيبة.

وجوه كثيرة تظهر وتختفى تحت الأضواء الخافتة داخل الكافتيريا الليلية، همسات هنا وقفشات هناك.. ضحكات ومعاتبات وثرثرة فى مواضيع شتى لا رابط بينها. مجموعات متباينة من البشر والمهن.. تجار ورجال أعمال وفنانون مشهورون وكومبارس ومعدّو برامج ومذيعات ومذيعون وسماسرة وقوادون.. وغيرهم من الهوامش البشرية الذين يتطفلون على حياة الآخرين على حساب كياناتهم وكرامتهم.. أحلام وأمانى ومكائد ونمائم ورؤس تلعب بها كؤوس الخمر وأذهان شاردة من ضباب المخدرات.. و.. الجميع يختفى وراء ستار المكان الراقى والشخصيات الأرقى.

ومع اقتراب بزوغ الفجر يتفرغ أحمد فهمى لتسوية حسابات حصيلة الليلة التى عادة ما تتجاوز مبالغها آلاف الجنيهات

والعمـلات الأخرى.. وكثيرًا ما كان يتلمس حافظة نقوده الشخصية فيجدها لا تحـتوى إلا على أشـباه النقود أو كأنها عمـلات نـادرة لا قيمة شرائية لها.

اقتربت عقارب الساعة من الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، عندما استأذن أحمد فهمى من مالك الكافتيريا طالبًا الانصراف بعد شعوره بالإرهاق الشديد.. فقد كان يومه مشحونًا بالإثارة الوجدانية وهمومه الفكرية.

كانت الدقائق تمر فى ملل وضجر وهو يقف أمام الكافتيريا فى انتظار مرور أى سيارة أجرة لتنقله إلى منزله. فهو مضطر يوميًا أن يضحى بقيمة الانتقال لصعوبة تواجد وسيلة أخرى تتناسب مع إمكاناته المادية.

وفى لحظة فوجئ بسيارة فارهة تتوقف أمامه عن عمد ليكتشف أن من يقودها هو عادل بك نجيب الذى تركه بالداخل منذ نصف ساعة تقريبًا.

وتحرك الزجاج الكهربائى للسيارة من اتجاه أحمد فهمى ليترامى إلى مسامعه صوت عادل نجيب وهو يقول بنبرة مخمورة :

– أتنتظر موعدك الغرامى يا خبيث .

وسرعان ما طفرت ابتسامة المجاملة على شفتى أحمد قبل أن يجيبه قائلاً :

- فى الحقيقة سيارة الأجرة الآن أغلى بكثير من أى موعد غرام.

لاحقه قبل أن يكمل كلامه :

- تعال اركب .. اجلس بجانبى .

صمت فى لحظة تردد.. ثم أجاب :

- شكرًا يا عادل بك.. فأنا منزلى قريب من هنا .

ضحك الرجل وقال بسماجته المعروفة عنه :

- يا سيدى لن أحصل منك على الأجرة.. لعلك ترحمنى غدًا من البقشيش الذى تأخذه كل ليلة .

اندلف إلى داخل السيارة دون أن يعقب على كلمات الرجل الذى اخترقت رئتيه قبل أذنيه .

وفى الطريق راح عادل نجيب يثرثر فى مواضيع مبتورة.. تحدث عن مشاريعه وعلاقاته النسائية، وكثيرًا من النميمة وأكثر من أحقاده الدفينة تجاه بعض رجال الأعمال الناجحين وأغلب نجوم الفن وأيضًا الذين أكثر ثراءً منه .. وبلا مقدمات فاجأه قائلاً:

- أرجو أن تتحمل سيارتى حوارى وأزقة بولاق، على كل حال أرشدنى عن أقرب مكان لمنزلك حتى لا أقع فى تلك المصيدة.

قال بفتور :

- أنا لا أسكن فى هذه المنطقة .

التفت إليه بانزعاج حقيقى ثم قال :

- لا يا عزيزى .. أكثر من تلك المسافة لن أستطع أن أكمل معك فأنا طريقى مصر الجديدة، فلا تكن طماعًا.

عاد مرددًا ومؤكدًا :

- صدقنى أنا أسكن هنا فى الزمالك.. و..

أشار له ليقف بعد عدة أمتار بجوار البرج المرتفع.. ثم أردف:

- من فضلك توقف هنا .

تلفت الرجل حوله.. ثم عاد يرمقه بنظرة متشككة قائلاً:

- هل تسكن فى هذا البرج ؟

أومأ برأسه دون أن يتفوه بكلمة. بينما استطرد الآخر متهكما:

- ويا ترى أنت والعائلة الكريمة تقيمون بالدور الأول أم العشرين.

- أنا أقيم بالدور الثانى.. وبمفردى.

بدا الاستياء يطفح على أسارير الرجل وهو يقول:

- مزاحك مقبول على كل حال.. ولكن مرة ثانية أرجوك لا تستهين بعقلى.

بادره بثقة :

- أنا لا أمزح.. ولولا أن الوقت متأخرًا لكنت رجوتك لكى تقبل استضافتى لك بالمنزل.. فهذا شرف لم أكن أحلم به.

وبكل بلادة ردد عادل نجيب قائلاً :

- وأنا لن أحرمك من هذا الشرف.. و..

تحرك خارج سيارته وأحكم غلق أبوابها.. وهو يشير إليه بأن يتقدمه قائلاً بتحدٍّ غير مبرر :

- تفضل .. فأنا الليلة أشعر ببعض الاكتئاب، وفى حاجة لأن أضحك قليلاً يا صاحب الخيال الكبير.

همس وكأنه يحدث نفسه :

.. تضحك .. أم تسخر يا مخمور .

بدت ملامح الجدية تزحف على وجه عادل نجيب، كلما شعر بأن الأمر فيه احتمال المصداقية، وهو يتبع خطى أحمد فهمى بعد انصرافهما من المصعد. واتجه نحو باب الشقة الخاصة به وفتحه ثم التفت إليه قائلاً بترحاب وتأدب :

- تفضل يا باشا .. اعتبره منزلك فأنا كما ذكرت لك أقيم بمفردى.

وتبدلت ملامح الجدية إلى ذهول وانبهار عندما وقف الرجل فى منتصف الردهة يتفحص اتساع المكان ويتأمل موقعه المطل على نهر النيل وبقايا ثراء متمثل فى قطع الأثاث والثريات المضيئة. وانتبه أحمد لذهول الرجل ، وأراد أن ينقذه من دوامات أفكاره،

وبدأ يسرد عليه باختصار قصته وهو يقدم إليه كوب عصير الليمون.. وتناوله منه صامتًا وكأنه أصيب بالبكم فجأة. وراح يتابع كلمات أحمد وهو يخبره بموضوع شقيقته المهاجرة والتى تناصفه أرث الشقة التمليك حسب وصية الأم التى رحلت منذ سنوات قليلة. وكيف أجبرته الظروف لأن يعمل فى وظيفتين لكى يتمكن من تحقيق ذاته وحلمه الذى تحوَّل إلى كابوس وهو ينتظر ما بين اللحظة والأخرى نهاية قصة حبه الكبير للفتاة التى ارتبط بها ما يقرب من خمس سنوات وهو عاجز عن إتمام الزواج حسب رغبة أهلها وشروطهم المنطقية.

وما كاد ينتهى من حديثه حتى بادره عادل بصوت أشبه بالحشرجة :

- على الأقل أربعة ملايين جنيهًا.

تصوره يهذى.. وتساءل :

- هل قلت شيئًا يا عادل بك ؟!

أسرع يجيبه بحماس :

- أقول أن الشقة تساوى أربعة ملايين جنيه تقريبًا.. فهذا جزء من نشاطى التجارى كما تعلم .

أطلق زفرة طويلة من صدره وكأنها كانت حبيسة لسنوات طويلة ووجدت فرصتها لكى تكسر قضبانها وتنطلق.

وقال بصدق شديد :

- هكذا كما ترى .. ثروة مجمدة لا فائدة منها .. وأنا فى أشد الاحتياج لأقل القليل منها لكى أرتاح من هذا الشقاء المتواصل.

تساءل بود كبير :

- وما الذى يمنعك ؟

- فى الحقيقة أرسلت لشقيقتى كثيرًا أبلغها برغبتى.. ولكنها للأسف الشديد تماطل بعمد أو بغير عمد.. تارة تدعى بأنها لا تستطع العودة الآن لأنها لا تقوى على عذاب ضميرها بعد تسببها فى وفاة والدتها وعدم حضور جنازتها.. وتارة أخرى تتحجج بمشاغلها بأبنائها من زوجها الأجنبى .. وثالثة تعد بأنها ستحضر خلال ستة أشهر.. وفى النهاية أجد نفسى لا أملك غير الانتظار.

عقَّب بحماس :

- هذا ظلم .. كيف تكون لك هذه الثروة وتقبل أن تستمر حياتك بهذا الشكل المتواضع والكئيب؟!

- هذا نصيبى .. ولا أحد يعلم ما يخبئه الغد.. وأحمد الله على كل شىء.. فأنا أعيش على تحقيق هذا الأمل قانعًا وراضيًا.

نهض عادل نجيب فجأة وكأنه تذكر أن عليه الانصراف فى تلك اللحظة واتجه للباب منصرفًا وهو يردد بدهشة كبيرة:

- تملك كل هذه الثروة.. وتعيش على أمل.. أى أمل.. ثم..

التفت إليه مودعًا بجفاء :

- تصبح على خير.. أقصد صباح الخير يا أبا الأمل.

و.. أغلق الباب منصرفًا.

بينما توجَّه أحمد فهمى إلى غرفته، وتردد لحظة ما بين أن يبدل ملابسه أو يذهب لفراشه وانتصرت الرغبة الثانية لديه فألقى بنفسه وبكل إرهاق يومه فوق الفراش وهو يهمس إلى نفسه وكأنه يطلب منها أن تنبهه فى الوقت المناسب لموعد هام.

.. سأغفو بعض الوقت .. اليوم موعدى مع ريم .. و..

أغمض جفنيه مستسلمًا للنوم العميق .





كان صباحًا رائعًا.. والأشياء من حوله أكثر روعة .

فهو فى طريقه إلى لقاء الحب، وكأن الحب تجسد فى كيان محبوبته فقرر أن يذهب للقائه ليأتنس به وأيضًا ليطمئن عليه وعليها.

ريم فريد.. ابنة الطبيعة أو كأنها تلك.

فقوامها كجزع النخيل البكر الذى يتباهى بأفرعه وكأنه تاج التميز بين نساء العالم.. بشرتها ذابت فيها توهج الشمس وأمواج الصيف ونقاء السحاب. حدقتا عينيها ارتوتا من زرقة السماء فبدت وكأن جفونها شواطئ لبحور الأحلام فى خيال شعراء الدنيا وأدبائها. خصلات شعرها كشفت عن إحدى عجائب الكون وأعلنت عن وجود الحرير الأسود الطبيعى. نبرة صوتها لا يضاهيها غير صدى النسمات الرقيقة وهى تداعب أغصان الورود برفق وربما بعشق أيضًا.

هكذا كان أحمد فهمى يرى محبوبته ريم فريد دائمًا.

ولهذا كان يطلق عليها مرددًا :

.. أنت يا ريم ابنة الطبيعة بالتبنى .

ولم يدم انتظاره كثيرًا لابنة الطبيعة ، حيث رآها تتلألأ عن بُعد وهو جالس فى أحد أركان الكازينو المطل أيضًا على نهر النيل حسب الموعد المتفق عليه والمعتاد بينهما .

وبمجرد أن دنت منه قالت بصدق وهى تجلس أمامه :

- أنا آسفة .. لقد تأخرت عليك قليلاً .

- لا وجود لمعنى التأخير.. فالزمن نفسه بيتوقف أثناء انتظارك.

ترقرقت ابتسامة رائعة فوق شفتيها وهى تقول :

- ليتنى تأخرت أكثر لكى أسمع منك المزيد من جمال معانيك.

قال بلهفة :

- أصبحت لا أطيق احتمال غيابك طوال الأسبوع .. ولا أعرف متى ينتهى عذاب هذا الفراق الاضطرارى.

وبغير توقع منه ، فوجئ باستفسارها المباغت :

- هل من أخبار جديدة يا أحمد ؟

اهتزت أهداب جفونه، وكأنه يستفيق من غفوة شاردة.. ثم تململ برهة قبل أن يجيب :

- كالعادة.. فلا زالت سعاد أختى تمطرنى بوعود ومواعيد

حضورها وعودتها.. ولكن كما تعلمين كلها وعود واهية أو متعمدة.

بادرته بحيرة :

- والحل !!

أرسل نظرته إلى سطح النيل.. ثم قال وكأنه يحدث نفسه :

- أفكر جديًا أن أضع مدخراتك ومدخراتى التى ادخرناها طيلة السنوات الماضية من أجل إتمام زفافنا وأنفقها فى شراء تذكرة الطائرة وأسافر إليها لأضع حدّا لهذه المهزلة ولهذا الوضع غير المنطقى .

قالت بهدوء وبراءة :

- افعل ما تشاء يا حبيبى .. طالما أنت متأكد من أن سفرك إليها سيعيد الأمور إلى نصابها السليم . و..

التفت إليها فى ذعر صامت ، وكأنه تذكّر فجأة حقيقة تلك الأمور.

فهو بالفعل لا يضمن نتيجة تلك المحاولة.. بل متأكد من فشلها . فكل المؤشرات تفصح عن تعنت وتعمد شقيقته سعاد بألا تمنحه فرصة استثمار إرثه عن والدته وذلك لأمر يخصها أو هكذا تصور نتيجة لتصرفاتها وتلميحاتها البعيدة .

سعاد تعتبره دخيلاً على هذا الميراث، لأنه يخص والدها قبل وفاته وقبيل أن يسجل باسم والدتها. وعندما تزوجت من رجل آخر أصبح لها شقيق يحق له الميراث فى والدتهما معًا.

هكذا كان يستشعر ما يجول فى خاطر أخته فى صمت يكاد يفضح نفسه من خلال تصرفاتها الماضية معه قبل زواجها ورحيلها. وربما استشعرت أمه أيضًا ذلك الإحساس ، مما دفعها لأن تسجل شقة الزمالك لصالحهما معًا بالتساوى وبألا يحق لأحد منهما أن يفرط فى نصيبه بأى صورة إلا من خلال موافقة الطرف الثانى.

ردد بهمسة مسموعة :

.. مسكينة أمى!!.. تصورت بأن بهذه القيود والشروط سوف تجبر سعاد على تخليها عن ذلك النفور الغريب نحوى.

اختنقت نبرة ريم تأثرًا قبل أن تقول وكأنها شاركته حديث الذكريات الصامت منذ بدايته :

- لماذا تتصور أن سعاد بالفعل تقصد إيذاءك وحرمانك من ميراث والدتك؟.. فربما تكون مخطئًا.. وأنها مجرد خيالات ليست واقعية.

أجاب وهو بين دفتى اليأس والحيرة :

- لا أعرف.. ولكن إلى متى.. فأنا لا يحق لى البيع منفردًا ولا حتى استغلاله فى أى مشروع .. و..

صمت برهة ازدرد فيها ريقه، وكأنه يبتلع قهره.. ثم أردف :

- وأيضًا عائلتك التى ترفض إتمام الزواج دون أن يكون لنا مسكنًا خاصًا بنا.. أشعر وكأنى سأجن أو أنفجر.. لقد ضاقت بى السبل.. ولا أدرى متى ينتهى هذا القهر.. وكأنى أعيش داخل صندوق زجاجى يسمح لى أن أرى كل الأشياء دون أن أتعايش معها.

مدت أصابع يدها بهدوء وربتت على كف يده وهى تقول بحنان :

- لا تسمح بالتذمر بأن يشوه صورة واقعك.. فأنا راضية ومستبشرة خيرًا من واقعنا.. و..

اتسعت ابتسامتها مع بريق عينيها وهى تستطرد قائلة:

- ثم أنا معك للنهاية.. ولن تستطيع أى قوة فى الدنيا أن تفرق بينى وبينك.. علينا فقط أن نسعى فى كل اتجاه .. وأنا على يقين بأن الواقع سوف ينصفنا.

همس بنبرة ضعيفة مرددًا :

- الواقع .. ماذا تعرفين يا ريم عن الواقع؟!.. ظروف عملى الليلى سمحت لى أن أرى الواقع على حقيقته.. إنه شىء آخر غير الذى تعرفينه. أعرف بشر تغدق عليهم الحياة بالسعادة والرخاء، ولا يحتارون إلا فى اختياراتهم لما يأكلون ويشربون ويرتدون من ملابس.. واقع لديهم لا يفرق بين

ليلهم ونهارهم.. لا هموم ولا خوف من الغد.. واقع سقطت وتلاشت منه معانى القهر والشقاء.. و..

صمت لحظة ثم نظر إليها برقة وأردف :

- ثم تتحدثين بعد ذلك عن الواقع .

عادت لتبتسم برضى وهى تقول :

- ولماذا لا تنظر إلى واقعنا نحن؟!.. فأنا وأنت نعيش أجمل لحظات الحب والأمان، وهناك البعض قد دمرتهم لوعة العذاب والفراق.. وأنت تقطن فى مسكن يطل على النيل وفى أرقى المناطق، وغيرك قد يكون فى حالة تثير الشفقة والتعجب.. غيرك قد يتكور وسط أسرة كبيرة داخل غرفة أو غرفتين فى قاع بناء متهالك.. أنت تعلمت وغيرك ربما فاتته تلك الفرصة ولم تسمح له الظروف بذلك.. وأنا أعيش وسط أسرة بسيطة المستوى ولكننا أثرياء بقناعاتنا وبكبرياءنا وتمسكنا بمبادئنا.. و..

ضغطت على كفه وهى تقول بتفاؤل :

- ثم إن الله يوزع الأرزاق علينا.. ليس بالمال أو الجاه وحده وبعدالة فى كل شىء سواء بالصحة أو الثراء أو النجاح أو التميز.. واعلم دائمًا أن الدنيا عندما تقبل عليك فإنها أدبرت عن غيرك فى توها .

قال وكأنما أراد أن ينهى ذلك الحديث :

- عندك الحق.

أسرعت تقول ببراءة :

- وأيضًا عند الأمل .

و.. دارت الساعات بينهما وهما يتنقلان بحرية كطائرين من حديث إلى غيره ومن حلم إلى آخر.. يضحكان بسعادة ويعشقان ببراءة ويهيمان بخواطرهما مع آمال المستقبل.. يسخران من ظروفهما وبأنهما سيتذكرا تلك المواقف فيما بعد عندما يتغير الحال فى أى وقت.. حتى مشكلتها مع نبيل ابن خالتها وزميلها فى العمل والذى تصر عليه أسرتها وأسرته بأن تختاره زوجًا لها، حتى ذلك الموضوع لم يؤثر على أحاديثها المبهجة، بل استثمره أحمد فى التهكم عليها لأنها ترفض زوج جاهز من كل شىء سواء من الشقة أو رضى الأهل.. و.. وتزداد سعادته عندما تعترض ريم بشدة على تهكماته وتؤكد حبها وارتباطها به.. و.. اكتشفا فجأة أن الغروب قد بدأ يزحف فى الأفق.. فصاحت بسعادة :

- الوقت مضى دون أن نشعر به.. أحاديثنا أخذتنا بعيدًا.

أجاب وهو يواصل ضحكاته :

- نعم .. فلقد أكلنا وشبعنا كلام.. هيا ننصرف الآن فموعد ذهابى إلى العمل اقترب.. وعلى كل حال نحن وفرنا قيمة

الغـذاء فـأنت تعـودين لتـأكلى فـى بيـتك .. وأنا سـآكل على حساب صاحب المحل.

وانطلقا فى ضحكة مقهقهة بصدق شديد وسعادة أكثر.

وانصرفا كل منهما فى طريقه .

وفى الطريق إلى منزله فوجئ أحمد فهمى بأنه لم يتخلص من فكرة السفـر إلى شقيقتـه سعـاد .. وبدأت خواطره تداعب أحـلامه فربما يكون هذا التصرف هو نهاية لكل مشاكله .. ربما يكون موقف سعـاد على غيـر ما يتوقع هو وبأن صلة الرحم ستنتصـر على كل المشاعر الدفينة غير السوية.

همس إلى نفسه وهو يندلف داخل مصعد البرج :

.. يا ترى كم قيمة تذكرة الطائرة إلى سويسرا !!

أمـضى سـاعتين فـى مـحـاولات فـاشلة لكى يغفـو قليـلاً حـتى يتمكن من السهر فى عمله، وأيضًا فى مقاومة الفكرة التى سيطرت على ذهنه. تنقل بين غـرف الشـقـة بلا هـدف.. استـغـرق عـدة دقـائق وهو يتـابع ظهور القـمر على استـحيـاء.. بدأ يبدل فى ملابسه تـأهبًا للانصـراف.. انتهى من طقوسه اليومية التى يقوم بها كل ليلة قبل ذهابه إلى العمل.. أطفأ الأنوار وأغلق النوافذ.. و..

مـا كاد يقتـرب من البـاب حتى توقف بـرهة بعـد أن سمع بعض الطرقات الخفيفة ورنين الجرس وقليل من الهمسات المسموعة.

وما أن فتح الباب حتى فوجئ بمواجهة عادل نجيب الذى انفرجت شفتيه عن ضحكته المعهودة وهو يردد بصوت مرتفع :

- ضبتك يا هارب.. إلى أين أنت ذاهب.. و..

قبل أن يجيبه أحمد تنبه إلى مجموعة أخرى تضم محمد نعيم وأصدقاءه وبعض الشخصيات التى يعرف بعضها من زائرى الكافتيريا والبعض الآخر لا يعرفه .

وتم اقتحام الشقة بتطفل أو باستظراف مغلف بالسماجة. وكل منهم يحمل فى يده بعض الأشياء المتباينة.. ما بين الكراتين والأكياس. وراحت الكلمات تتناثر من حوله وهو يجاهد فى إخفاء اضطرابه من المفاجأة المذهلة.

.. جئنا نحتفل هنا معك بعيد ميلاد هيفاء.

.. أرأيتم ما أجمل هذا الموقع!!

.. لقد أعددنا لهذه المناسبة منذ يومين دون أن نخبرك لكى نفاجئك بها.

.. طلبنا لك أجازة اليوم من العمل.

.. أرنا أين المطبخ نريد أن نتولى أمورنا .

.. يا مفترى كيف تقيم وحدك فى هذا المكان الرائع!!

.. لا بد وأنك أصبحت فنانا بكل تأكيد.

و.. تدخل عادل نجيب فى الحديث قائلاً :

- دعنى أتمم لكم مسألة التعارف أولاً ..

ثم راح يعدد أسماء الواحد تلو الآخر.. رجالاً ونساءً.

واتجه بكلماته نحو أحمد .. وقال :

- أقدم إليكم أحمد فهمى صديقى العزيز.. الذى سيتبناكم هذه الليلة..

وراح يقهقه بسماجته المعروفة دون أن ينتظر التعقيب على كلماته.

وبدأ الجميع يتصرف بحرية وكأنه فى مكان يملكه.. البعض ينسق الأكواب والآخر يجهز آوانى الثلج مع زجاجات الخمر.. وثالث يكشف عن ديك رومى أعد خصيصًا لهذه المناسبة.. ورابع يدير موسيقى صاخبة.. بينما انشغلت مجموعة أخرى فى أحاديث جانبية بموضوعات مختلفة.

كان أحمد يتجول بينهم ، إلى أن أرهقه التجوال وجلس بجوار محمد نعيم وهو يبادله بعض كلمات المجاملة .

ومع مرور الوقت.. ورحيل اتزان العقول.. وتحول المكان وكأنه ملهى ليلى تحت شعار الكل فى خدمة الكل.

فاجأه محمد نعيم متساءلاً :

- هل حقًا ما سمعته من عادل عن موضوع شقتك هذه؟

أومأ برأسه دون أن يتفوه بكلمة ، وحاول أن يبدو طبيعيًا.

واصل نعيم كلماته .. ولكن بصوت مسموع هذه المرة :

- الحياة مليئة بالمواقف والأمور الغريبة .

التقط عادل نجيب هذه الكلمات وكأنه ينتظر أى موضوع يتحدث فيه وقال بشىء من الجدية :

- وماذا تعلمت من الحياة يا فيلسوف عصرك ؟

انتبه محمد نعيم وكأن الآخر كان يخصه هو بالذات.. ثم أجاب:

- أنا يا سيدى اختصرت الطريق.. وكانت مسيرتى كأى فرد عادى ولكن مع اختلاف النهاية.. فأنا كافحت ودرست وتقلدت أرفع المناصب.. وكونت أسرة.. و.. أحسنت نشأتها.. ثم قررت أن أتعايش مع البقية الباقية من عمرى على طريقتى الخاصة.

و.. قال متهكمًا :

- أخبرنا أنت ماذا تعلمت من حياتك ؟

نهض عادل نجيب مسرعًا وتوسط حلبة الجلوس.. وبدأ حديثه وكأنه سيلقى خطابًا هامًا :

- علمتنى مدرسة الحياة أمورًا كثيرة.. أولا لا تعتمد على شىء واحد. ولا تضع ثقتك فى إنسان واحد.. ولا تحصر

مشاعرك فى اتجاه واحد.. ولا تتاجر فى تجارة واحدة.. وأيضًا لا تتزوج من امرأة واحدة.

وراح يضحك بشدة حتى كاد يترنح من عدم توازنه.. و..

بلا مقدمات انبرت هيفاء قائلة :

- بالنسبة لى لم أتعلم من الحياة.. ولكنى فهمتها وأدركت حقيقتها.

توجّه أحمد بنظرة إليها.. وجدها فرصة ليتأمل شكلها.

كان جمالها مبهرًا كإبهار الثراء الفاحش الذى يكون مصدره غير مشروع.. عذبة الحديث كنداء الخطيئة عندما تتجمل وتتلون حول وفوق وداخل ملذات الدنيا.. عيناها لها بريق وضاء يشع ومضات متلاحقة كصواعق السماء.. لها جاذبية تفوق جاذبية الأرض.

فازداد انتباهًا لها وهى تواصل قائلة :

- فهمت أن أفعل ما أريد حتى لو كان ضد رغبات الآخرين ومعتقداتهم.. آكل ما أشاء وأغفو متى أشاء وألهو وأغترف من مغانم الدنيا كلما سمحت لى الظروف.. واقعى هو كيانى ومنصة انطلاقى هى عقلى.. أستجب لاحتياجاتى ولا أحرمها حتى لا أفقد ذاتى وأندم بعد فوات الآوان.. و..

ضحكت بميوعة قبل أن تستطرد قائلة :

- أبى وأمى عندما أنجبانى لم يتم اختيارهما لى.. وأنا بطبيعة الحال لم أخترهما، فلِمَ كل هذه التعقيدات الأسرية وثرثرة الانتماء وصلة الرحم .. أمى نفسها عندما اختارت فتركت أبى وتزوجت من غيره.. و..

ضحكت بميوعة أكثر وهى تردد :

- عندى خالى قرر أن يغيير اسمه فجأة وذهب إلى مكاتب السجلات وفعل ذلك. فماذا حدث له؟! .. لا شىء طبعًا.

مبدأى يا أصدقائى الأعزاء هو.. افعل ما تريد تحصل على المزيد. حتى لو كانت ملذات الحياة تحت دعوة عبدة الشياطين كما يطلقون على جماعتنا .

وفى لحظة توتر شديدة شعر بها أحمد فهمى وكأنها تقبض على عنقه بقسوة وعنف ، وذلك عندما فاجأته هيفاء متساءلة :

- وأنت .. !!

تلعثم قبل أن يجيب مرددًا :

- أنا .. !!

لاحقته وكأنها تنقض عليه :

- نعم أنت .. ماذا تعلمت من حياتك ؟

- أعيش فيها .. مثلى مثل الآخرين .

مالت برأسها قليلا نحو كتفها، وهى تنظر إليه بدهشة .. ثم قالت:

- فقط.. أهكذا كل ما تعلمته من حياتك أنك تعيش فيها فقط!!

اضطر لأن يصمت للحظات، عندما اقتربت منه وهى تمد إليه بكأسها قبل أن يفرغ .. وعادت تطرح عليه سؤالها مرة ثانية.

تناول الكأس منها فى استسلام وهو يقاوم إحساسه بالاضطراب الشديد لأنها تعمدت الجلوس على حافة مسند مقعده..

ثم قال هامسًا وبحرص :

- لماذا تندهشين من إجابتى ؟!

تعمدت أن تضع ساقًا فوق ساق لتكشف عن استهتارها وضآلة حيائها. ولم تنتبه لما حدث لعادل نجيب من اهتزاز توازنه وتأجج رغباته المتدنية نتيجة لفعلتها تلك.

وقالت بنبرة أنثوية حالمة :

- كيف لشاب فى وسامتك وثقافتك .. و.. فحولتك. يكون مفهومه للحياة بأنه يعيش فيها فقط .. و..

صمتت برهة لتشعل سيجارتها.. ثم أردفت قائلة :

- الحياة يا عزيزى كالكتاب المدجج بالصفحات ، وأعظم متعة لأى إنسان أن يقلب فيه صفحة بعد الأخرى، بتمعن وروية.. و.. متعة.

وبلا مقدمات أقحم عادل نجيب نفسه فى الحوار.. وقال دون أن يبتعد بنظرته عن ساقيها :

- استفديا ابنى استفد.. فالمسألة ليست بسنين العمر ولكن بالحنكة والخبرة والفطنة والذكاء.. و.. بالجمال أيضًا.

وانطلق يقهقه بضحكاته بلا حدود، بعد أن تملكت الخمر من رأسه.

حاول أحمد فهمى أن يتخلص من ذلك الحصار، ونهض متعللاً بأن يضع كأسه الفارغ فوق المائدة التى أمامه.. ولكنه فوجئ بيد هيفاء تستوقفه وهى تقول بدلال المحترفات :

- هذا ليس من عملك.. عندى رغبة شديدة لكى أخدمك.. و..

رمقته بنظرة ساحرة تحمل معانى لا يصعب فهمها.. وفى لحظات أعدت كأسين أحدهما يخصها والآخر لصالحه.. ثم عادت إلى مجلسها على طرف المقعد وأكملت حديثها مستطردة:

- أنا شغوفة جدًا لكى أعرف سبب هذا الحزن الذى يطل من عينيك.

أسرع عادل متطوعًا ومتطفلاً.. وقال:

- أحمد له قصة غريبة.. أعتقد أنها السبب فى هذا الحزن.

و.. راح يثرثر ويسرد ما يعلمه عن قصة الشقة والقيود التى

فرضت على ميراثه.. كان يعيد ويزيد من خيالاته فى ذلك دون مراعاة لوجود صاحب المشكلة بينهم .. و.. اتسعت دائرة الحوار بتدخل محمد نعيم وأيضًا بعض الأطراف الأخرى، ودارت الكؤوس ومعها الرؤوس بلا تفرقة أو محاذير.

بينما فشلت كل محاولات أحمد فهمى لكى يخبرهم بأنه لم يعتد على ذلك الأسلوب فى تعاطى الخمور، فبدأ هو الآخر يكمل مسيرة القصة وأحداثها، بل أضاف عليها كل التفاصيل الدقيقة الخاصة بعلاقته بسعاد شقيقته.. واختلط ضباب أنفاسهم الرمادية بغيوم الموقف المؤثر.. وأيضًا بالتصاق هيفاء بجسده أكثر وأكثر.

وفى لحظة عنترية من عادل نجيب انبرى صائحًا بثقة قائلاً:

- أنا عندى الحل لهذه المشكلة. ولكن الوقت غير مناسب لكى أفصح عنه .

وهنا نهضت هيفاء وهى تجذب أحمد فهمى من يده لكى يتبعها وساقته وهو مسلوب الإرادة فى اتجاه إحدى الغرف.. ثم قالت وكأنها تتحدث إلى ذاتها :

- وأنا أيضًا عندى الحل.. ولكن أعتقد أن الوقت مناسب جدًا لكى أبوح به إليه الآن .

و.. سقط أحمد فهمى فى هوة الخطيئة.. وتعايش مع تلك اللحظات الآثمة، وكأنه فى حلم شديد الاقتراب من الحقيقة. وكأنه

قرر فى غفوة من ضميره أن يتعلم أول درس لمعنى الحياة كما يرونها كل من حوله.. السكارى منهم والمخدرون والمغيبون. وهو لا يدرى بأنه قد استسلم لمعلمه الجديد، الشيطان الذى تجسد فى صورة هيفاء التى استطاعت ببراعة ومن خلال لحظة غيبوبة أن تمحو من ذاكرته كل تاريخ ماضيه .. و.. أيضًا ريم فريد.





تبدلت الليالى برداء آخر لم يألفه أحمد فهمى من قبل.. ولكنه استعذبه بلا وعى.. لم تعد الشمس تثير فيه الإحساس بالأمان والإيمان.. ولا القمر بات يدغدغ مشاعر الحب فى قلبه كعادته معه، لم يعد الزمن بالنسبة إليه وسيلة لحمل الأمانى والأمنيات ، بل أصبح مطية لشهواته الطارئة ونزواته الطائشة.. تبدلت الليالى وكأنها أعلنت تمردها على عشيرتها من أزمنة الماضى وأتت إليه بالجديد.

الجديد فى كل شىء.. فى أفكاره وتطلعاته ، وفى أحلامه وأمانيه .. وأيضًا فى رؤيته لواقعه .

بات يتأمل بل يفاضل ما بين براءة ريم فريد أو سذاجتها كما أصبح يتصورها ، وما بين طموحات هيفاء وذكائها.. يتأمل الفرق بين الاستكانة والرضى بالواقع وبين الجرأة والتمرد عليه .

كانت المقارنة ظالمة بالنسبة لإنسان مثله قد فقد كل رصيده من الماضى فجأة.. كما فقد إرادته .

استطاعت هيفاء أن تفقده قدرة التمييز بين الحلال والحرام، فاستحل الخطيئة بكل رضى.. كشفت عن ستار الوجه الآخر للحياة ليرى فيها مباهجها التى تصور يومًا أنه حُرم منها.. عايش متعة البدن فأصبح مسلوب الكيان ومتمرد الوجدان.. أخذته بعيدًا عن ذاته وألقت به فى دوامات لا فكاك منها. وجاء طوق النجاة فى لحظة لقائه المنفرد مع عادل نجيب أثناء زيارته له بالمنزل، عندما اقترب منه كالأفعى الغادرة، وسلط نظرته إليه قائلاً بصوت خفيض:

- لقد وعدتك بأن أجد لك حلاً لمشكلتك.. أليس كذلك؟!

أومأ برأسه مؤيدًا لكلماته دون أن يتفوه ببنت شفة.. فاستطرد الرجل متساءلاً :

- منذ متى وشقيقتك فى مهجرها ؟

دار بنظره حول لا شىء، وكأنه يسعى لتذكر تاريخ سفرها.. ثم همس:

- منذ اثنى عشر عامًا تقريبًا .

انفرجت شفتيه عن ابتسامة باهتة قبل أن يعقب بخبث:

- وماذا إذا استمرت فى غربتها مدة مماثلة أخرى.. كيف سيكون حالك.. ومتى ستستفد من ميراث والدتك ؟!

- هذا ما يؤرق حياتى.. ولذلك أفكر جديًا فى السفر إليها.. لعلى أناشد فيها صلة الرحم .

قال بتبجح :

- ها قد عدنا للكلام الخائب.. أى صلة رحم تلك التى تتحدث عنها وأنت لم تر حتى أبنائها.. ولا تعرف عنها شيئًا إلا من خلال مكالماتك المتباعدة تلفونيًا معها.. و..

صمت للحظة استدعى فيها كل خبراته فى المراوغة.. ثم أردف وكأنه يحدث نفسه :

- يبدو أن هيفاء عندها حق، عندما قالت عنك أنك تعيش فى وهم كبير.. كما أنها تشفق عليك من رومانسيتك الغير مناسبة فى عصرنا اليوم.

تساءل وهو فى حيرته أو غيبوبته :

- وماذا بيدى أن أفعله ؟!!

أجاب بسرعة .. وباقتضاب :

- أن تثق بى.. و.. بها.

- كيف .. و..

قاطعه بجدية :

- هذه الثقة ستمنحك أكثر من مليونين من الجنيهات.. ستجد نفسك من أصحاب الملايين وستحقق كل طموحاتك وأحلامك.. وتنقذ حياتك من هذه المأساة التى لا ذنب لك فيها.

ردد كالمسحور :

- كيف ؟!!

- مسألة كيف هذه سأخبرك بها.. ولكن عليك بالإصغاء التام.

و.. طرح عليه الفكرة .

وأخذ يبهره بعلاقات هيفاء التى لا حدود لها، وبقدرتها بأن تأتى إليه بتوكيل عام موثق من شقيقته ومن كل الجهات الرسمية بلا أدنى مسؤلية جنائية، ومن خلاله ستوفر له قرض بضمان الشقة بما يوازى نصف ثمنها على الأقل.. مليونان من الجنيهات.. ولأنه يحبه كأخ أصغر سيشركه فى مشاريعه المتعددة مع ضمان تسديد القرض فى مدة لا تتجاوز العامين وبهذا ستحل جميع مشاكله.. ستفتح الدنيا أحضانها له.. سيقبر ليال الفقر والاحتياج.. سينعم بالحياة وبشبابه ويلحق بتلابيب آماله وطموحاته.. سينجو بنفسه من اليأس والإحباط، وينتصر على واقعه الذى طالما أذاقه مرارة القهر والعجز، وجعل منه صورة باهتة من إنسان بلا كيان .

و.. لكى تكتمل الصورة الوردية، فوجئ بزيارة هيفاء أثناء حديثهما لتعمق ملامح الحياة الجديدة أمامه وتؤكد على مقترحات عادل نجيب بكل ثقة.. وتمايلت أحلام أحمد فهمى مع قوام هيفاء ودارت كؤوس الوهم، ورحلت هموم الفكر.. و.. رحل معها الرجل

الضيف، ليجد نفسه مرة ثانية منفردًا معها.. بل مع ثالث لا يراه.. ولكنه أصبح يعيش بداخله وفى وجدانه.

اكتشف فجأة أن واقعه الجبار مجرد أكذوبة، لم يكن يتصوره بأنه بهذا القدر من الهزال.. كيف كان يخشاه وكيف كانت ترتعد أوصاله من لياليه.. واقع تخفى وراء ستار الزيف.. تصوره قادرًا وهو فى حقيقة أمره مسلوب الإرادة. وبأن الإنسان هو الأقوى والأذكى والأحق بتغيير كل مفاهيم الدنيا.. الواقع مجرد صلصال يمكن تشكيله بحسب رغباته .

لم يجد أحمد فهمى صعوبة فى تصديق ذلك.. معاناته الوحيدة هى فى كيفية إقناع ريم فريد بذلك الواقع الجديد.. أو المفهوم الأحدث لمعنى الحياة.

أدرك أن تلك المواجهة أصعب بكثير مما كان يتوقع.. كان بين خيارين فإما أن يختار الحقيقة أو الاختيار الآخر.

ووجد نفسه ينساق للاختيار الثانى فى أول لقاء بينهما فى منزله.. وقبل أن يبادرها بالحديث فاجأته بحب قائلة :

- لا أعرف كيف سأقضى فترة غيابك وأنت بعيد عنى.. و..

مدت إليه بمظروف متوسط الحجم.. وأردفت :

- هاك كل ما أملك من مدخراتى.. خمسة آلاف جنيهًا.. لعل المبلغ يفيدك فى تكاليف سفرك .

تردد برهة ما بين القبول والرفض، ثم أشار إليها بيده قاصدًا معنى التريث قليلاً.. وقال مجاملاً :

- اجلسى أولا يا ريم .. و..

لاحقته وهى تتلفت حولها قائلة بإعجاب :

- لم أتوقع أن تكون الشقة بهذه الروعة.. أتعلم أنها زيارتى الأولى لك منذ التقينا أول مرة خلال الخمس سنوات الماضية.

أخفى ارتباكه الذى داهم أفكاره .. وأجاب مبتسمًا :

- لكى تدركى مدى تقصيرك تجاهى.

عادت تمد إليه بالمظروف وهى تجلس أمامه :

- دعنا نتحدث عن الأهم.. خذ المبلغ أولا ثم تعال نتصور سيناريو الأحداث القادمة .. هل اتصلت بسعاد ؟!

صمت لحظة .. أدار نظرته عنها وقال باقتضاب :

- لا ...

- ستفاجئها بزيارتك !

- لا ..

- أرسلت لها برقية .

- لا ..

أزعجها قليلاً ذلك الغموض .. وقالت بتوجس :

- إذن ماذا ستفعل .. وما هى خطتك ؟!

تململ بحركة غير ارادية ، ثم توجه بكل اهتمامه إليها .. وقال بجدية:

- أريدك يا ريم أن تقدرى الموقف الذى أنا فيه .. عليك استيعاب ما سأخبرك به وبنظرة منطقية بعيدًا عن المثاليات التى أعرفها عنك .

صمت متعللاً بإشعال سجارته .. ثم أردف دون أن ينظر إليها :

- أتعدينى يا ريم بأن تساندينى فى قرارى.

أسرعت تجيبه بدون تردد :

- أنا معك يا حبيبى فى أى قرار يخص مستقبلنا .

استدعى شجاعته وأخبرها بكل تفاصيل فكرته الجديدة، ودور عادل نجيب فى مساعدته للحصول على القرض.. وعن حلم الثراء واختيار الواقع الجديد، وأنه يجد بهذا التصرف الضمان الحقيقى لحقوقه المسلوبة.. والمسألة تحتاج إلى عامين فقط، ثم تعود الأمور إلى عهدها فى السابق بعد تسديد القرض.

لم يتوقع ذلك الهدوء الذى اقترب من الفتور وهى تتابع كلماته باهتمام شديد.. ثم قالت بعقلانية وكأنه لم يفاجئها بشىء:

- أنا أقدر ظروفك يا أحمد جيدًا.. وأيضًا قدر الاحباط

واليأس الذى يسيطر على وجدانك.. ولكن.. دعنا نتدارس الأمر جيدًا ونتوقع عاقبة ذلك التصرف.. و..

قاطعها بحزم :

- التوقعات ليست فى مجال اهتماماتى الآن.. المهم عندى أن أحصل على حقى، وأن أعيش كغيرى من البشر.

بدأت تكشف عن نواياها الرافضة.. وقالت بتهكم :

- وهل غيرك من البشر يعيشون بأسلوب الغدر والخيانة.. واللصوصية أيضًا.

اندفعت الدماء إلى رأسه بقوة وهو يعقب على كلماتها :

- لصوصية .. أهكذا أصبحت فى لحظة مجرد لص.. سالب لحقوق الآخرين لا مسلوب.. ظالم لا مظلوم .

حاولت أن تستعيد هدوءها قبل أن تقول :

- لقد خاننى التعبير.. ولم أقصدك أنت.. ولكنى قصدت التصرف نفسه فليس له دلالة غير أنه تصرف طائش لا يتناسب مع أخلاقياتنا.

قال بتذمر :

- الأخلاقيات .. الأخلاقيات .. تلك الشعارات هى السبب فى سنوات شقائى الماضية.. هى الجدار القاهر الذى حال بينى

وبين أن أعيش كباقى الآدميين.. هى السبب فى حرماننا من بعض طوال الخمس سنوات الماضية ونحن ننتظر ما تجود به الظروف.. خمس سنوات وأنا وأنت نلهث وراء السراب يحيط بنا العجز من كل جانب.. لقد بدا الشيب يغزو خصلات شعرى ولا زلت عاجزًا عن توفير أقل القليل من المال.. الناس يمرحون ويرتدون أبهى ملابسهم ويتنقلون بسياراتهم الخاصة ويأكلون ما يشتهون ويستمتعون بحياتهم وبكل مباهجها.. وأنا ذليل يائس، أنظر للجميع بحسرة وحرمان وهم ينظرون إلى بالشفقة وزيف الحنان.. أنا مجرد حلم من أحلام اليقظة ، والآخرون حقيقة واقعة.. أنا..

ولكنه اضطر للتوقف عن الحديث عندما قاطعته بانفعال حقيقى:

- أنت واهم ومسحور.. لقد أنساك تذمرك بأنك تعيش وتسكن فى أجمل موقع، وتعمل فى عملين قد لا يتوفرا لغيرك.. وتأكل وتلبس دون أن تجوع أو تتعرى.. أعيش معك أطهر قصة حب ونستمتع بلوعة الكفاح فى سبيل تحقيق أملنا.. وأيضًا تدخر حقك فى الميراث للوقت المناسب.. بعد كل هذا تقول أنك تعيش كحلم من أحلام اليقظة.. أبعد كل ذلك لا تشعر بأننا نعيش أحلى واقع وأصدق قصة كفاح

شريف.. تبحث بإرادتك عن الحرام وتقتل المبادئ والخير في صدرك بإرادتك أيضًا.. تطالب بحقك من خلال السرقة والتزوير.. و..

صمتت ثوان واستردت خلالها أنفاسها المتلاحقة.. ثم استطردت قائلة :

- كيف خانك تصورك وخيل إليك أننى سأتقبل تلك الفكرة الشريرة.. كيف هان عليك أن تلوث حبنا الطاهر؟!! .. و..

سكتت .. عندما نهض ثائرًا بانفعال حقيقى.. وراح يخطو لبضعة خطوات ثم يعود إلى أدراجه وهو يصيح :

- أنت الواهمة .. تمسكك بتلك الشعارات الزائفة خير دليل على ذلك.. والحقيقة ليست هكذا.. الحقيقة أنا أعرفها جيدًا وكنت أضمرها فى صدرى والخوف ينهش فى وجدانى يومًا بعد يوم.

قالت ببراءة متساءلة :

- أى حقيقة التى تعلمها وكنت تضمرها فى صدرك ؟!!

أجاب بإصرار وهو يتفحص ملامحها :

- بأنك لن تخسرى شيئًا .. أنا أعلم جيدًا أنك عاجلا أم آجلاً ستملين الانتظار ولن تصبرى أكثر من ذلك.. ثم ترحلى..

وتختارين حياة جديدة.. وأعتقد أنك أعددت لها كل الظروف بوجود البديل.. سواء إن كان زميلك «نبيل» أو غيره.. ستتزوجين وتنجبين أطفال من غيرى.. وأصبح أنا مجرد ذكرى .. وأظل أنا على حالتى تلك أنتظر فتات الآخرين.. أنتظر مصيرى حسب رغبة الآخرين ويظل مكانى على جانب من هامش الحياة .. أدور كالطاحونة صباحًا ومساءً فى سبيل الأخلاقيات التى تتغنى بها يا ريم أليس كذلك؟!.

وما كادت تنطق بحرف حتى ابتلعته من هول المفاجأة، عندما فوجئت بمن يفتح باب الشقة ويدخل عليها بشكل طبيعى جدًا.. حيث ظهرت فجأة هيفاء بنصف ملابسها كعادتها وأسرعت تجاهه وهى تحتضنه وتمطره بالقبلات صائحة بصوت أقرب للصراخ :

– مبروك يا أحمد يا حبيبى لقد حصلت لك على موافقة القرض.. أنا سعيدة جدًا بذلك.. ولأننى ..

وكأنها تنبهت لوجود الفتاة الأخرى بالشقة.. فالتفتت نحوها قائلة بميوعة :

– أنا أسفة يا أحمد .. لم أكن أعلم أن عندك كل هذا الجمال ضيفًا عليك اليوم ..

واستدارت تجاه أحمد مرة ثانية .. وهى تواصل قائلة :

- جئت فقط أبلغك بالخبر ولن أعطلك كثيرًا.. في الحقيقة لقد بذلت مجهودًا مضنيًا لكي أحصل لك على تلك الموافقة من البنك.. و..

التفتت نحو ريم واستطردت قائلة بخبث العاهرات :

- ولكنه مجهود أقل من مجهودك الذى ستبذله الآن بطبيعة الحال.

و.. كأن شيئًا لم يحدث أو حدث.. اختفت هيفاء راحلة عن الشقة كما ظهرت فجأة، بينما ظل أحمد فهمى متسمرًا فى مكانه دون أن يتفوه بكلمة واحدة ، وقف مذهولاً أو مشلولاً.. فاقدًا النطق والحركة.. والتفكير.

وبهدوء مثير تحركت ريم من مكانها واتخذت خطواتها نحو الباب ثم توقفت برهة أمامه وهى تحملق فى وجهه بفزع وصدمة كبيرين.. وقالت هامسة بنبرة متحشرجة :

- الآن عرفت السبب.. ولست غاضبة منك.. ولكنى مشفقة عليك.

وتركته منصرفة.. ليقف وحيدًا، لا يأتنس إلا بذهوله وشرود فكره.. و.. جفاف حلقه.

وكأنه سقط فجأة داخل الفضاء الخارجى، عندما تصبح الخطى بلا طريق وبلا اتجاه.. انعدمت الجاذبية نحو أى شىء..

لا قدرة ولا إرادة. لا هدف ولا توقعات.. مجرد دوامات غير مرئية تلقفت جسده الذى بات بلا هوية، وراحت تميل به إلى جانب ثم تطيح به إلى جانب آخر وتغوص بكيانه إلى أعماق الفراغ، ثم تقذفه إلى أفق الخواء وهو مسلوب الفكر والوجدان.. والحيلة أيضًا. غيبوبة شرسة استقطعت من عمره فترة زمنية ولم ترحل عنه إلا بعد أن حددت له معالم واقعه الجديد.. واقع محاط بقضبان هلامية تملكت من حواسه ومن إرادته فأصبح كالدمية الالكترونية التى تتحرك من خلال رغبات الآخرين.

فتحرك .. ونفذ.. وانصاع دون مقاطعة !!

وبسطت الخطيئة زراعيها لتضمه برفق إلى أحضانها، وأخذ يرتشف من سُمها الجميل.

لقد تم كل شىء كيفما خطط له عادل نجيب وبشروطه أيضًا وبمعاونة هيفاء الساحرة.. حصل على قرض المليونيين من خلال التوكيل المزور وبضمان الشقة.. وبدأت أولى مراحل الاحلال والتبديل فى حياته.

السيارة الفارهة بدلاً من الميكروباصات وسيارات الأجرة عند الضرورة. والتعاقدات والمشروعات الطموحة بديلاً عن وظيفته الصباحية التى استقال عنها، وسهر الأثرياء بين رجال ونساء الأعمال عوضًا عن جلوسه خلف ماكينة حسابات الكافيتريا طوال

الليل.. لم يعد للزمن قيمة بعد أن كانت تعتصره ليال الفكر الشارد فى الماضى بحثًا عن بارقة أمل فى غده... أصبح محورًا لاهتمام الجميع، الكل يسعى لإرضاء رغباته ونزواته، استقر فوق عرش المديح وكثرت من حوله العلاقات وتغلغلت فى صدره الطموحات.

و.. أصبح كل شىء متاحًا ومباحًا من خلال قيادة هيفاء لمسيرته وتعاليم مستشاره الجديد عادل نجيب .





مـا أبشع أن يـرتدى السـراب ثوب الأمـل.. مـثل الماء المسـمـوم الذى يقضى على الحياة بدلاً من أن يمنحها للظمآنين.. كمشاعر المنافقين ووعود الكاذبين.. ثوب الأمل الزائف، الذى يتعرى كل من يحاول أن يرتديه ويضيّع خطى كل من يتبعه.. كإشباع الفقير فى أحلامه ثم يستيقظ على قرصات الجوع فى واقعه .. كمن يتجنب أشواك الزهور ويستأنس نعومة جلد الأفاعى.

فكانت ريم فـريد واحـدة من ضـحـايا ذلك الأمل، عندمـا استوعبت صدمتها وبدأت تستجيب لنداء الحب وتوسلاته، وراحت تلملم المبررات من أعماق وجدانها وتفرضها على عقلها وأفكارها.

.. سأقاتل من أجل حبى وحبيبى.. لن أتركه فريسة ليأسه وإحباطاته.. سأحميه من نفسه الحائرة ومن رفقاء السوء.. لن أسمح له بتلويث وجدانه وتاريخه.. لن أتركه بمفرده بين اللصوص والعاهرات.. سأعود به إلى عالمنا .. إلى حبنا وأحلامنا .

و.. اتخذت القرار .

وراحت تبحث عنه فى كل مكان .. وكأنها تطارد شبحًا لا وجود له. فقدت كل سُبل الاتصال به، بعد أن اكتشفت فصله من عمله الصباحى وتركه لوظيفته الليلية وتغيير رقم هاتفه المحمول.

ولم تجد أمامها غير وسيلة الذهاب إلى منزله مرة ثانية.. وذهبت.

.. كان الوقت قبل الغروب.

فوجئت بأناس غرباء.. لا تعرف أحدًا منهم .. استقبلوها وكأنهم أصحاب المكان أو مستأجرينه الجدد.

وبمجرد سؤالها عن أحمد وجدت نفسها وسط دائرة من السكارى والمخدرين الذين بدأوا يمطروها بوابل من الكلمات المترنحة من بين شفاهم المتبلدة.

.. أحمد خطفته الجنية.

ويصيح آخر باستظراف :

.. إنه يسبح الآن فى بحور العسل.

ويتطاول ثالث قائلاً :

.. أما نحن فنعرف قيمة الجمال يا فينوس.. ونقدره.

وامتدت يده نحو خصرها ، فهوت بكل قوة تصفعه على وجهه وهى تصرخ قائلة :

- يا سافل .. سأجعلك تندم على فعلتك تلك.

و.. اســتـدارت منصــرفـة فى هرولة وهى لا تصــدق أنهــا استطاعت أن تفلت من براثن هؤلاء الحثالة البشرية.

وما أن غادرت المصعد حتى فوجئت بأحمد فهمى وهو يترك سيارته برفقة هيفاء، استعدادًا للصعود إلى شقته .

توقف الزمن للحظات واحـتـبـست الأنفـاس فى الصــدور المضطربة من أثر المفاجأة، وكانت هيفاء أكثر جرأة أو اعتيادًا على تلك المواقف. فـواصلت خطواتهـا إلـى داخل ممر البناء وهـى تردد بصوت مسموع :

- سأنتظرك بأعلى يا أحمد .. لا تتأخر .

ثم تجاوزتها وهى تسلط إليها نظرة متهكمة، بينما تسمَّر أحمد فى مكانه إلى أن اقـتـربت منه ريم وبادرته باتزان غـيـر منطقى وقالت:

- أصبحنا نلتقى بالمصادفة .. أليس كذلك ؟!

تحركت شفتيه برجفة خفيفة قبل أن يجيب هامسًا :

- لنذهب إلى مكان آخر لنتحدث .. و..

استـقـرت بجـواره فى السـيـارة التى انطلق بهـا يقطع الطريق صامتًا لبضعة لحظات.. ثم قال دون أن يلتفت نحوها:

- كيف حالك يا ريم !

أجابت بابتسامة ساخرة :

- جميل أنك لا زلت تتذكر اسمى .

قال بجفاء :

- لا داعى للسخرية .. يجب أن تقدرى ظروفى ومسؤلياتى الجديدة.

لاحقته قائلة :

- ويا ترى أين أنا من مسؤلياتك هذه.

لم يعقب.. واستمر فى قيادته للسيارة، حتى وصل بها إلى موقع لقاءاتهما المعتادة، وبمجرد أن استقرا فى مكانهما.. قال بتردد:

- دعينى أشرح لك حقيقة الموقف :

أجابت بلا تحمس :

- ها أنا فى انتظار حديثك .

و.. راح يكرر عليها مبرراته السابقة، وكيف أنه يسعى لتحقيق حلمهما الذى طال انتظار ترجمته إلى أرض الواقع.. وأنه استجاب لتنازلات كثيرة من أجل الهروب من قبضة الفقر والاحتياج.. وأن أموره المالية فى أيدى أمينة وخبيرة، وسوف يتمكن من تسديد القرض فى خلال عامين فقط وستعود الأمور كما كانت.. وأسهب

كثيرًا فى طمئنتها وبأنه لن يقع تحت طائلة القانون.. وطالبها بالقليل من الصبر.. باغتته بإصرار قائلة :

- وأنا أيضًا سأتقدم بالكثير من التنازلات فى سبيلك.. ومن أجل حبنا.

تساءل فى ترقب :

- كيف !؟

- نتزوج .. و..

أفلتت من بين شفتيه كلمات وكأنه يهذى :

- ماذا تقولين .. نتزوج .. كيف!؟ .. وهل ؟

قاطعته مؤكدة :

- نعم نتزوج.. والآن.. بشرط أن تبتعد عن هؤلاء الأفاقين.. وسأتحدى رغبة أهلى.. وسأقف بجانبك.. سنعمل سويًا فى أى مشروع مضمون العائد حتى نتخلص من تلك الورطة التى أسقطت فيها نفسك دون أن تدرى.. نعيد ثلاثة أرباع القرض، ونحتفظ بالباقى ونحاول تسديده فى أقرب وقت دون أن يلحظ أحد بشاعة تلك الخطيئة التى ارتكبتها.

أجاب بانزعاج حقيقى :

- أنت تتعاملين معى وكأنى طفل صغير.. لا يعرف تحديد مصيره.

- أنا أحاول إنقاذك فقط .. و..

استمر فى ثورته وهو يقول :

- بل أنتِ لا تفكرين إلا فى نفسك.. تريدين تحقيق رغبتك فى الزواج دون مبالاة لموقفى أمام نفسى والآخرين .

قالت بانفعال :

- زواجى منك بهذه الطريقة أكبر تنازل منى.. كان لا يمكن تحقيقه لولا ظروفك الحالية.

وبلا توقع قال وهو يصرخ :

- لا تحاولى تقمص صورة الملائكة.. وأنا الآن الذى يرفض الزواج منك بهذا الأسلوب.

نهضت من مكانها فجأة. وحاصرته بنظرة عميقة وصامتة، ثم استدارت منصرفة دون أن تتفوه بكلمة واحدة.

بينما ظل هو ساكنًا فى موقعه دون حراك واكتفى بمتابعتها وهى تختفى من أمامه رويدًا رويدًا وكأنه استيقظ لتوه من أحداث مبهمة لأضغاث حلم مزعج .

وكأنه كان أمام المشهد الأخير من مسرحية بكائية أسدل عنها الستار وعليه أن يتأهب للرحيل، كما لو كان يتجرع مرارة الفراق وهو يلقى بنظرة الوداع الأخيرة تجاه أغلى ما لديه وهو يتوارى فى

قبره. اختلطت المعانى فى وجدانه.. هل يمكن أن يموت الحب فجأة أمام نزعات الأنانية والمكابرة؟.. هل يمكن أن تذوب الذكريات كالخطى فوق الرمال الناعمة وتصبح لا أثر لها؟.. كيف تفرز لحظة واحدة من عمر الزمن كل هذه المتناقضات!!.. لحظة واحدة.. تنطلق من رحمها صرخة وليد يستقبل الحياة لأول مرة ، وهى ذاتها التى توارى كيان آخر داخل ظلمة القبور.

لقاء هنا وفراق هناك.. دموع للفشل ومثلها للنجاح.. كيف تنتهى الخطى والطريق لا يتبدل، كيف تنبض القلوب حبًا وهلعًا.

وسحبته اللحظة ليتبعها وراء لياليها!!

وجوه غريبة وضوضاء الموسيقى وكأنها طبول حرب بدائية.. شفاه تتحرك بلا معنى، وقهقهات غير مسموعة.. نظرات زائغة وابتسامات زائفة.

البعض فى أحاديث جانبية مبهمة، والآخر يتابع رقصات وقفزات السكارى، والمتصابين فوق حلبة الرقص داخل الملهى الليلى وكأنهم يعانون تحت أقدامهم من جمرات ملتهبة لا يستطيعون الثبات فوقها للحظات .

حاول أحدهم أن يتبادل الحديث معه، ولكن صوته جاء مشتت النبرات، فلم يجد غير ابتسامة باهتة ردًا على تلك المحاولة الفاشلة.

أحنى رأسه قليلاً فى اتجاه أذن هيفاء.. وتساءل بحرص :

- من هذا الشخص الذي يحاول محادثتى.. أنا لا أعرفه !؟

لامست شفتيها أذنيه وهى تجيبه بتودد :

- إنه من كبار رجال الأعمال.. لقد دعوته على أمل أن نعقد معه صفقة العمر .

ردد بتحفز :

- صفقة العمر!!

أحاطت كتفه بذراعها وهى تواصل قائلة :

- نعم صفقة العمر.. وأرجو أن تتكتم الأمر عن الجميع.. خاصة عادل نجيب.

قاطعها متساءلاً بفضول شديد :

- وهل يعرفه !؟

- لا .. إنه واحد من أهم علاقاتى الخاصة.

عاد يستفسر بفتور وكأنه ينهى الحوار معها :

- وما هى طبيعة تلك الصفقة !؟

أجابت هامسة :

- الزئبق الأحمر .. و..

تلفتت تتفحص الوجوه حولها.. ثم عادت تهمس إليه بحرص أكبر:

- دعك الآن من هذا الموضوع.. وسوف نكمله فى وقت آخر.

و.. فى دقائق الهدوء النسبى بين فواصل برنامج السهرة، فوجئ الجميع بتساؤل عادل نجيب بصوته الأجش :

- ألا تعرفون يا سادة أين اختفى محمد نعيم طوال الفترة الماضية.

وتلاحقت التعليقات من الجميع :

.. فعلاً إنه غائب عن الحضور منذ فترة طويلة .

ويقول آخر بلا اكتراث :

.. ربما فى رحلة سفر .

وتعقب إحداهن :

.. أكيد هو فى ملهى آخر يبحث عن صيد ثمين كعادته .

وتضحك الأخرى :

.. ماذا تفعل العظام الواهنة أمام مرونة ورشاقة الراقصات.

وتساءل أحمد فهمى لمجرد المشاركة فى الحديث :

- ألم يسأل أحد منكم عنه ؟

انبرى صحفى الجريدة الغير معتمدة متطوعًا وهو يقول فى محاولة لإثبات تواجده بينهم :

- أنا أعرف مكان مسكنه فى العباسية .

تحين فرصة الانفراد به .. وسأله مرة ثانية :

- أيمكنك أن تخبرنى بعنوانه .

أجاب بتطفل :

- لماذا ؟.. أقصد أترغب فى أن أصطحبك إليه ؟

قال باقتضاب :

- أريد عنوانه فقط .

أخبره على مضض .

وفى صباح اليوم التالى، توجه أحمد فهمى إلى منزل محمد نعيم بالعباسية.

لم يصدق ما رآه.. وكأنه يقف أمام رجل لا يعرفه، كل شىء تغير فى صورة محمد نعيم .

ملامح مكتئبة، وعينان زابلتان ، وشارب أكث غير مهذب، وذقن غير حليقة، وشعر منتكش.. و.. رائحة الخراب تفوح من أرجاء الشقة.

همس إلى نفسه :

.. ماذا حدث ؟!

سأله على استحياء :

- ماذا حدث يا نعيم بك .. لقد طالت غيبتك عنا؟!

حاول أن يبتلع ريقه الجاف قبل أن يجيبه قائلاً :

- لم يحدث شيء غير طبيعي يا أستاذ أحمد.. فالدنيا كالمرأة الغادرة التى لا أمان لها مهما طالت فترة معايشتها.

لم يصمد محمد نعيم طويلاً أمام كثرة تساؤلات وإلحاح أحمد فهمى. واضطر فى النهاية لأن يخبره بما حدث له فى الفترة الماضية. حدثه عن صدمته عندما فوجئ بابنته التى تركت دراستها بالجامعة وتفرغت لحياة العبث ورآها تراقص بعض الرجال فى إحدى الكازينوهات الليلية، وذلك أثناء تواجده مع مجموعة أخرى من رواد المكان.. وأخبره كيف تيبست شرايين عقله، واستقرت ينابيع المرارة فى حلقه عند لحظة اقترابه منها، وعن لقاءها الفاتر به وكأنه غريبًا عنها، وازداد الأمر سوءًا وهى تخبره بدورها بلامبالاة أو تحفظ بأن والدتها تزوجت من ثرى عربى فى الثمانين من عمره، وبأن شقيقها ترك كلية الطب ليعمل مندوب مبيعات فى شركة أدوية استثمارية. وعنها شخصيًا أخبرته بأنها تعيش بمفردها مع بعض زميلات عملها غير المنتظم كمترجمة للمجموعات السياحية ثم ودعته كوداع لقاء الغرباء.

صمت لعدة لحظات، ثم أطلق زفرة طويلة من صدره وكأنها ألسنة لهب.. وعاد مردفًا وكأنه يستدعى ذكرياته :

- الغريب أن هذا الموقف تزامن مع قرب تبخر كل مدخراتى.. وكل ما حصلت عليه من مستحقات المعاش المبكر.. و..

ضحك فجأة بهستريا أراد بها السخرية، وهو يواصل كلماته قائلاً:

- غلبتنى الدنيا.. وكنت أظن أننى قادر على تطويع واقعها.

وبحماس حقيقى لاحقه أحمد فهمى قائلاً :

- لا تقل هذا يا محمد بك.. فأنت لم تفعل غير الصواب.. و..

وجد نفسه يردد دون وعى أغلب عبارات هيفاء التى كانت تستدعيها دائمًا فى كل أحاديثها.. واستمر يقول بجدية واقتناع:

- نحن نعيش مرة واحدة، ويجب أن نغتنم تلك الرحلة قبل فوات الآوان لا شىء أن يقيد إرادة الإنسان إلا التمسك بأساطير المثل والتقاليد، أو مراعاة ردود أفعال الآخرين.. الضعفاء فقط هم الذين يحلمون ويستمتعون مرغمين بأحلام اليقظة.. أما الأقوياء هم وحدهم الذين ينسجون واقعهم حسب رغباتهم فقط.. و..

نهض من مكانه مقتربًا منه وراح يربت على كتفه واستطرد :

- انهض يا رجل ولا تستسلم لمشاعر الوهم والمثاليات البالية.. أنا شخصيًا لن أتركك بمفردك.. بل نحن جميعًا فى انتظارك.

أجابه بلا تردد قائلاً :

- لقد أصبحت بلا فائدة سواء بالنسبة لك أو للآخرين أيضًا.. فأنا أخطأت وعلىّ أن أتحمل نتيجة خطأى ولن يتحملها غيرى.. فلم أعد أملك مالاً يشفع لى تصرفاتى، ولا سلطة تفسح لى مكانًا بينكم وليست لدى موهبة التملق والنفاق.. فما هى فائدتى إذن معكم ؟!!

حاول أن يثنيه عن توتره :

- أنصحك بألا تستسلم لتلك الأوهام .. فلقد.

أسرع يقاطعه وهو يقول بحزن واضح :

- الصراع كان غير متكافئ.. لقد هزمنى الواقع عندما حاولت تغييره.

عاد يقول له بإصرار :

- أنت لم تغير شيئًا.. أنت فقط أزحت ستار الزيف الذى كان يخفى الحقيقة.. فالحقيقة أن الجميع كان يستغل تواجدك بينهم كمصدر لتحقيق أحلامهم.. مجرد ينبوع يمتصون ما فى جوفه إلى أن يجف ويزيل .. أو .. يموت .

سكت عدة لحظات، وكأنه يتابع تأثير كلماته إليه.. ثم واصل قائلاً:

- زوجتك كانت ستتركك فى كل الحالات.. وابنك كان لا يفكر قط إلا فى الاستقلال عنك .. وأيضًا ابنتك كانت تتحين الفرصة لتغير مسار حياتها .. ولذلك فأنت لم تدخل فى تغيير واقعك.. أنت فقط كشفت عن الحقيقة فى الوقت المناسب لك .. والغير مناسب لهم.

طفرت ابتسامة منهكة على شفاه محمد نعيم وهو يتابعه بنظرة تداخلت خلالها معانى الإشفاق والعطف.. ثم قال هامسًا :

- على كل حال أتمنى أن تكون صائبًا فى أفكارك .. وأرجو لك التوفيق .

أجابه بلا مبالاة :

- إذا احتجت إلى شىء فلا تتردد بالاتصال بى.. و..

تركه منصرفًا دون تلكؤ.. وهو يردد إلى نفسه قائلاً :

.. الغباء لا يفرق بين المثقف والجاهل.. مسكين يا محمد نعيم!!.





غفوة أم غرور.. لحظة ضعف أم مكابرة وأطماع.!!

هل هى لعنة الطموح الذى لا يحده حدود، أو هو استرخاء ذهنى تسبب فى الخلط ما بين الواقع والغيبيات، وما بين المنطق واللامعقول. كانت تلك هى الحالة الوجدانية التى تعايش معها أحمد فهمى وهو يجتمع بقطبى الاتفاق.. أو بمخططا صفقة العمر، هيفاء والوافد الجديد.

الساعة تجاوزت منتصف الليل بقليل، واللقاء بمنزله وملامح التكتم تحوم حولهم .

بدأت هيفاء تعدد مزايا تلك الفرصة النادرة، وكيف أنها ستجلب ملايين الجنيهات، وأن الأقدار عندما ترضى عن أحد فهى تمنحه تلك الصفقة التى انتظرها الآخرون منذ آلاف السنين.

قالت مؤكدة وبانبهار :

– هل تعلم أن الجرام الواحد من الزئبق الأحمر يمكننا تسويقه بمليون جنيه وبسهولة جدًا.

ويؤكد الزائر على كلماتها وهو يوجه حديثه إلى أحمد قائلاً :

- فى حوزتى عشرة جرامات .

فتلاحقه بدلال قائلة :

- لقد وعدتنى بأن يكون إجمالى المبلغ المطلوب للكمية كلها مليون جنيه فقط.

أجابها فى صورة غزل :

- أنتِ تأمرين.. وكل ما أملك سأهبه لك بدون مقابل.

و.. يستمر الحوار بينهما ما بين كلمات الإطراء وهمسات المساومة، بينما يتابعهما أحمد فهمى وهو يقاوم دغدغة أحلامه الطامعة.. ثم تساءل باستحياء الجاهل :

- ما سبب ارتفاع قيمة تلك الجرامات.. وكيف يتم الحصول عليها؟!

وبقناعة تصل إلى حد العقيدة، راح الرجل يسترسل فى شرح أهمية الزئبق الأحمر قائلاً :

- فى عصر الفراعنة، كانوا يضعون فى تجويف فم المومياء أمبول صغير بداخله الزئبق الأحمر، تأكيدًا لمعتقداتهم بأنها ستسخر لهم حراس لهم قدرات خارقة لحماية موتاهم من لصوص المقابر. وهذا ما يجعل الحصول على ذلك الزئبق أمر أقرب إلى المستحيل.

وازدادت رغبة أحمد فهمى الشديدة.لمعرفة المزيد.. وتساءل بلهفة:

- وما فائدته ؟!

رمقته هيفاء بنظرة عتاب خاطفة،تعبيرًا عن دهشتها لضآلة معلوماته وجهله بحقائق الأمور، بينما تعمد الرجل أن يلفت نظرها بأنه قد لاحظ إشارة العتاب التى وجهتها لصديقها.. وعاد مسترسلاً :

- كما تعلمون لكل قاعدة استثناء.. والاستثناء هنا يتحدد فى قدرة البعض لحصولهم على تلك الأمبولات، ويتم بيعها للباحثين عنها بمبالغ طائلة .. و..

تقاطعه هيفاء بثقة بعد أن أمسكت بتلابيب حديثه.. وقالت:

- خاصة فى بعض أجزاء أفريقيا من شمالها وجنوبها، فهم لديهم قدرات فائقة لاستحضار الجان وتسخيرهم .

ومرة أخرى يتساءل أحمد فهمى، وقد سيطرت عليه الدهشة تمامًا:

- كيف ؟!!!

أجابت بثقة أكبر :

- بعد استحضار الجن يضعون على طرف لسانه القليل من ذلك الزئبق فيتحول إلى خادم أمين لصاحبه، ويحقق له كل الرغبات المستحيلة.

وكالمسحور ردد أحمد فهمى :

- بالنسبة لى إذا ما حصلت على الزئبق، فماذا يمكننى أن أفعل به.. فأنا لا أعرف أماكن تسويقه .. ولا..

ثم حاول أن يوحى لهما بأنه متماسك، وقال ساخرًا :

- ولا أعرف أيضًا طرق تحضير الجان .

لاحقته هيفاء قائلة بجدية :

- ستكون تلك هى مهمتى.. فأنا كما تعلم لدى اتصالات كبيرة معهم.

تساءل بلا تردد :

- كم المبلغ المطلوب ؟!

تدخل الرجل قائلاً :

- مليون جنيه.. وأمامكما فرصة يومين فقط.. وبعد ذلك سأتصرف فى الكمية التى فى حوزتى.

أسرعت هيفاء قائلة بانزعاج :

- لا .. لا أرجوك.. فالمبلغ سيصلك غدًا على أكثر تقدير.. و..

والتفتت نحو أحمد متساءلة :

- أليس كذلك يا أحمد بك ؟!!

أجاب مستسلمًا :

- سيكون المبلغ جاهزًا غدًا.

نهضت فجأة وهى تحيطه بنظرات الإعجاب.. وقالت:

- سنتركك الآن لتتدبر أمرك.. وسنرجأ احتفالنا بطريقتنا أنا وأنت غدًا.

و.. انصرفا البائع والوسيط معًا.. وتركاه يلملم شتات أفكاره التى تبعثرت فى رأسه.. و.. وجدانه!!

واحسرتاه على سنوات عمرى التى انقضت وأنا أعيش سجينًا لأوهامى.

هكذا ردد أحمد فهمى وهو فى حديث مع الذات.

كل شىء بات رائعًا ومتفاءلاً فى أعماقه وواقعه.. الحياة أصبحت ضحوكة ومبهجة.

ولِمَ لا !!!

استثماراته مع عادل نجيب توفر له أرباحًا منحته فرصة الاغتراف من مباهج الدنيا .

بذخ فى الإنفاق، وليال حالمة وملتهبة.. آمال تعانق نبضات قلبه. والغرباء أصبحوا أصدقاء.. الجميع يسعى لترضيته.. وملامح الأكبار والتقدير تتبع خطاه أينما ذهب.. قامته باتت كمنصة انطلاق لكل مشاعر الزهو والغرور.. نظراته تتأمل الآخرين من علياء..

الأرض تضاءلت مساحتها تحت قدميه، وبدأ يفكر فى الدوران حول العالم.

ولِمَ لا !!

وقد أوفى صاحب الصفقة بوعده، وأتى إليه بأمبول الزئبق. وتمت الصفقة بهدوء.. وبدأت هيفاء تطلق بخور الأحلام ليمتلأ صدره بعطر الأمانى والملايين.. رجال غرباء يأتون إليه عن طريقها، ومن كل بلاد الدنيا.. أجناس مختلفة وعروض أكثر إغراءً.. الجميع يساوم ويزايد على الصفقة.. وأدرك أن المبلغ الذى دفعه كان ضئيلاً أمام تلك العروض المغرية.

واقترب أكثر من فكر جماعات عبدة الشيطان.. بل الشياطين أنفسهم ، وما أكثرهم .. وما أجملهم فى نظره !!

أصبح ما بين ليلة وضحاها، قائدًا لواقعه بعد أن كان تابعًا له. كل شىء تغير فى خصاله وداخل كيانه.. المعانى اختلفت مضامينها فى مفهومه.. واعتنق فكره أن السعادة هى الحرية التى تبيح كل شىء. وكان عليه أن يحطم جدار التقاليد والمبادئ.. وبأن منطق الحب بمفهوم الآخرين هو العجز وتسول المشاعر، واستجداء للعطف ومذلة الأشواق.

أصبح الحب عنده يمثل الشهوة لكل شىء، فارتمى فى أحضان ذلك المفهوم الذى أحاطه بشرنقة اللاعودة إلى خزعبلات ماضيه الكئيب.

ولكن.. إذا كان الماضى لا يعود.. فهو أيضًا لا يموت!!

راودته رغبة شديدة أن يصرخ فى وجه الجميع، معلنا أنه كان الأصوب والأقدر على فهم معنى الحياة.

وازدادت تلك الرغبة أكثر عندما تسللت إلى مخيلته صورة ريم فريد، وتمنى فى هذه اللحظة أن تكون أمامه ليطلق صرخته فى وجهها.. لعلها تلتمس له العذر أو تعود إلى رشدها.

فكان قراره بأن يذهب إليها.. مهما كانت نتيجة المواجهة بينهما!!

لم تدم فترة انتظاره طويلاً أمام مقر عملها.. ولكنه لم يكن يدرى أنه سيواجه موقفًا مثيرًا فرضته لحظة زمنية أكثر إثارة، حين رآها تتصرف من البوابة الرئيسية لمقر عملها وبرفقتها شاب شديد الوقار والأناقة، وقد ظهرت بوضوح ملامح الحميمية بينهما من خلال طريقة التحادث.. و.. الخطوات.

لحظة فجرت بداخله كوامن من انفعالاته البشرية، والتى تصورها فى الفترة الماضية أنه استطاع التحكم فيها والسيطرة عليها.

تحركت فى وجدانه مشاعل وحرائق وثورات غاضبة كان مصدرها أنانيته التى بلا حدود. لم يتوقع قط أن يرها يومًا مع رجل آخر حتى ولو كان قد تخلى عنها، كما لو كانت ليس لها الحق فى الحياة بدونه .

تناسى أنه أول من استهان بذكرياتهما، وهو الذى بادر بالتمرد على حبهما.. ها هى النفس البشرية عندما تنغمس فى كبريائها الزائف، وعندما تسن لأهوائها قوانين ذاتية لا يحق لغير صاحبها الانتفاع بها.. النفس الغرورة التى تكابر من أجل أنانيتها ويكون هدفها أولاً المقابل حتى ولو كان بلا عطاء.. نفوس لا تعرف العدالة ولكنها تجيد تطبيقها بطريقتها الخاصة ولصالحها.. أنفس تحب أن تُحب دون مساواة، وتأخذ بدون أن تعطى بلا مراعاة!!

وهو فى هذه اللحظة لم يرغب إلا فى رؤيتها.. فلم ير غيرها.

وتقدم نحوها، وما أن اقترب منهما.. بادرها قائلاً :

- لقد تأخرتى قليلا عن موعد انصرافك فى العمل.

لم تعلق على كلماته، ومضت لحظات صمت يشوبها التوتر، وقد أخذتها الدهشة لتصرفه المفاجئ، والذى حاول فيه أن يتجاهل موقفه الأخير منها.

ثم التفتت نحو الشاب الذى بجوارها.. وقالت بثبات:

- الأستاذ نبيل حلمى. ابن خالتى وزميلى فى العمل.. و..

توجهت بنظرها إليه وأردفت :

- الأستاذ أحمد فهمى !

اندفعت الدماء إلى رأسه بعدما فاجأته بطريقة تقديمه للآخر وكأنه كان ينتظر منها المزيد من الإضافات لشخصه.

ولكنها لم تفعل.. واكتفى هو أيضًا بابتسامة باهتة، ثم سكن صامتًا لا يدرى ماذا يفعل أو يقول .

ومرة ثانية كانت هى صاحبة المبادرة.. وقالت متساءلة :

- كيف حالك.. أرجو أن تكون قد حققت نجاحاتك كما كنت ترغب وتريد !

وبنظرة مسالمة، كما لو كان يستجديها أجاب بحذر:

- من أجل هذا جئتك اليوم.. فأنا مهتم جدًا بأن أطلعك على بعض الأحداث الجديدة.

وهنا تدخل نبيل حلمى مقاطعًا فى تأدب وتوجه بالحديث إليها :

- إذا لم يكن لديك مانع يا ريم، فاسمحى لى بالانصراف وسأراك غدًا صباحًا.

أومأت برأسها بالموافقة مع نظرة تودد حقيقية، فى الوقت الذى التفت نبيل إليه وقال باقتضاب :

- فرصة سعيدة يا أستاذ أحمد .. و..

استدار منصرفًا بتؤده .

أسرع أحمد فهمى قائلاً لها وكأنه لم يستمع لكلمات الآخر :

- هيا نتوجه لمكاننا القديم لأخبرك بالأحداث الجديدة.

لم يتفاءل خيرًا، عندما فاجأته برغبتها قائلة :

- لنذهب إلى مكان قريب من هنا. فأنا مرهقة بعض الشىء وليس لدى متسع من الوقت.

مرة أخرى يرضخ لرغبتها مضطرًا، ويذهبا إلى كافيتريا قريبة من موقعهما. وما أن استقرا فى مكانهما حتى راح يثرثر مسترسلا كل الأحداث التى مرت عليه فى الفترة الماضية، وهو ما بين أحاسيس الزهو والفخر تارة وبين تحليقه بأجنحة أحلام اليقظة تارة أخرى. وريم فريد تتابعه بتركيز شديد، ولم تحاول مقاطعته مرة واحدة، بل تركته يواصل كلماته بلا توقف.

ثم بادرها متساءلاً ونشوة الثقة تغوص فى نبراته :

- والآن .. ما رأيك فيما ذكرته لك.. ألم أكن محقًا فى قراراتى السابقة؟!

وبهدوء مثير أجابت :

- أتعرف ما هى مشكلتك يا أحمد؟!.. أنك كالذى شطر كيانه إلى شطرين ثم أشعل لهيب الصراع بينهما، بل وجاهدت بكل الطرق لكى تساند وتنصف أحدهما على الآخر.

قال بصدق حقيقى:

- أنا لا أفهم ما تقصدين !!

- أقصد أنك أقمت صراعًا ما بين وجدانك وواقعك.. وصراعًا آخر ما بين أحلامك وإمكانياتك.

همس بنبرة منخفضة :

- ستعودين ثانية للرومانسيات الخيالية.. و.. غير المجدية. أراك على إصرارك السابق، ولم تستفدى من الحقائق التى أمام عينيك.

أسرعت قائلة بثقة :

- من قال لك أننى لم أستفد من تجربتى معك.. بل على العكس فأنا أشهد بأنك علمتنى أمورًا كثيرة، لم أكن أدركها وأيضًا لم أكن أتخيلها.

عاد إحساسه بالتشاؤم يفرض نفسه عليه كما حدث فى بداية اللقاء.. وتساءل بحذر :

- كيف ؟!

أجابت وهى تتأمل ملامحه، وكأنها تراه لأول مرة:

- اكتشفت معك مفهوم الحب.. وتعلمت من خلال علاقتنا أن الحب موقف.. تمامًا كالرجولة. وبأنه عطاء كالأمومة.. وأنه سلام مع النفس وقناعة بمشيئة الله.. عرفت معك ما كنت أجهله عن ذلك الإحساس الجميل، وبأن الحب حرية وصفاء، وقيد بلا أنانية والتزام بالمبادئ والأخلاق.. و..

قاطعها وقد انتفخت رئتيه من النشوة.. قائلاً :

- كل هذا عرفتيه معى يا غالية!!

ترقرقت ابتسامة خفيفة فوق شفتيها.. ثم قالت مؤكدة:

- نعم عرفته واكتشفته معك.. ولكنى لم أجده فى علاقتنا معًا!!

قال بانزعاج شديد :

- ماذا تقولين. . ألم يكن ما كان بيننا حبًا حقيقيًا؟!

لاحقته بسرعة :

- كان حبًا.. بمفهومنا الخاطئ.. كان صورة غير أصلية، وكلمات بلا مضمون.. كان استنساخًا مشوهًا لمعنى الحب الحقيقى.. وبفضلك أنت وحدك استطعت أن أقارن وأفرق بينهما.

حاول أن يستبقى البقية الباقية من كبريائه.. وتساءل ساخرًا:

- ويا ترى.. هل كانت المقارنة مع زميلك هذا الذى رأيته معك؟

أجابت وهى تسيطر على انفعالاتها:

- أعتقد أنك تلمح إلى زميلى وابن خالتى الأستاذ نبيل حلمى.. ولكى لا أثير فضولك أكثر من ذلك، يهمنى أن أخبرك بأنه بالفعل أحد طرفى المقارنة.. وبطبيعة الحال كانت لصالحه.

تدلت ابتسامة على طرف شفتيه، ثم قال مستهزأً :

- إذن وجدتى ضالتك عنده.. وكأنك تستملحين تلك الحياة.. اللهث وراء لقمة العيش ، وانتظار توالى الليالى لنهاية الشهر ليحصل على فتات الأجور.. والبحث المستمر عن وسائل الاقتراض من الآخرين لتسديد الاحتياجات.. والسعادة فى تنسم رائحة العرق داخل المواصلات المزدحمة.. والاستمتاع برؤية المصايف والملاهى وجمال الطبيعة فقط من خلال شاشات التلفزيون والسينما.. و..

وأطلق ضحكة عالية، وهو يضرب كفًا بكف.. ثم أردف :

- أهكذا هو مفهوم الحب فى نظرك.. أتحاولى أن تساومينى ما بين الفقر أو الهجر.. هل تلك هى شروطك.. إما العودة للخنوع والمذلة، وإما اللاعودة إلى ارتباطنا؟!!

أجابت بتحدٍّ واضح :

- لا مجال للمساومة يا أحمد.. فأنا وأنت كلانا اختار الطريق الذى يرغب السير عليه.. فأنا وافقت على لقائك الآن لننهى ما كان بيننا بأسلوب متحضر، ولعلمك هذا هو ما اتفقت عليه مع نبيل منذ اللحظة التى رأيناك فيها وأنت تنتظرنى أمام مقر عملى.. و..

ونهضت فجأة وهى تستطرد قائلة :

- والآن اسمح لى بالانصراف .

انتفض وهو لا يزال فى شروده .. ثم قال بلهفة :

- انتظرى .. دعينى على الأقل أوصلك بسيارتى.

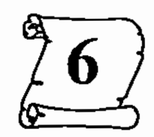
أشارت بيدها رافضة العرض وهى تقول :

- لا داعى لذلك .. فطريقنا ليس واحدًا .

وتركته منصرفة دون أن تنتظر رد فعله .

بينما تسمَّر هو فى مكانه، وقد سيطر عليه الذهول تمامًا، وبدا عاجزًا عن التفكير أو اتخاذ أى قرار، فى لحظة من لحظات اللاوعى التى اجتمعت فيها تناقضات مشاعره ما بين الشرود و..التبلد.





يوم من أيام الصيف المحترق.. قرص الشمس يتراجع بصعوبة وبطئ فى محاولة لأن يشق الأفق المختنق أثناء رحلة الغروب.

لا نسمة هواء.. وأوراق الأشجار تيبست كالصخر فوق أغصانها، والفضاء تلون بالاصفرار الشديد انتظارًا لذوبانه فى ظلمة الليل القادم.

كأن ذلك الإحساس المناخى قد تسلل من نافذة أحمد فهمى واستقر فى صدره ضاغطًا على رئتيه بقوة، مما جعله يعانى من لحظة انقباض فجائية لم يستشعرها منذ فترة طويلة مضت. قرر أن يترك منزله، ويتجه إلى أى مكان آخر لعله يصادف نسمة هواء تخلصه من ذلك الاختناق.

وما كاد يصل إلى باب الشقة حتى ترامى إلى مسامعه رنين الجرس. فوجئ بعثمان النوبى حارس العقار وبجانبه رجل ضخم البنيان يرتدى نظارة طبية، لم تستطع إخفاء عيونه الصقرية.

بدأ عثمان حديثه بلهجته النوبية، وهو يشير إلى الرجل قائلاً:

- سعادة البك .. يسأل عن حضرتك يا أحمد بك.

التفت نحو الزائر ودقق فى ملامحه للحظات.. ثم ردد مرحبًا:

- أهلاً وسهلاً.. تفضل.

دلف الرجل صامتًا، بينما تراجع عثمان منصرفًا.. وقبل أن يتساءل أحمد عن سبب تلك الزيارة.. بادره الضيف ليفصح عن شخصيته قائلاً بنبرة مهذبة :

- رزق كامل.. محامى السيدة سعاد فهمى ووكيلها فى مصر.

سرت فى جسده قشعريرة شديدة، وكأنه أصيب فجأة بمرض جلدى. وبصعوبة بالغة قال بعد أن ازدرد ريقه :

- أهلاً وسهلاً.. يا رزق بك .

عاد الرجل يقول بتودد :

- أرجو المعذرة لأنى حضرت إليك بدون موعد سابق.. ولكن عذرى هو أننى اتصلت أكثر من مرة هاتفيًا ولم أجد أحدًا فأرجو أن تستحمل تطفلى المفاجئ.

أجابه بلا تردد :

- لا تقل ذلك.. فأنا سعيد جدًا برؤية سيادتك .

- أشكرك .

حاول أحمد فهمى أن ينهض وهو يقول :

- يا ترى أى مشروب تفضله سيادتك ؟!

ولكن الآخر يستوقفه بتأدب قائلاً :

- لا داعى يا أحمد بك.. فأنا سأتحدث فى الموضوع مباشرة. كما أننى مرتبط بمواعيد كثيرة فى مكتبى.

استسلم لرغبة الرجل، وسكن صامتًا فى لحظات ترقب انتظارًا لما فى جعبة المحامى.

و.. بثقة ووضوح بدأ رزق كامل حديثه قائلاً :

- فى الحقيقة جئت بناء على تعليمات سعاد هانم، لكى أنهى إجراءات وصية الميراث التى تنحصر فى هذه الشقة.. وسوف أتولى بيعها لكى تتقاسما قيمتها.. و.. أعتقد أنها حسب رغبتك أيضًا.. فقد أبلغتنى الهانم مدى إلحاحك عليها لتقسيم نصيب كل منكما فى الميراث.

راح يومئ برأسه مؤيدًا لكلماته، ولكنه ظل صامتًا وكأنه لا يجد ما يقوله أو أنه أصيب بالخرس فجأة وهو لا يدرى.

بينما أردف المحامى قائلاً :

- المطلوب من حضرتك عمل توكيل لى بالموافقة على إتمام الإجراءات حتى أنتهى منها فى أسرع وقت.. وأود أن أطمئنك بأن الموضوع لن يستغرق وقتًا طويلاً، فكل المستندات فى حوزتى وسأسعى للحصول على أعلى قيمة لبيع الشقة.

تساءل بحذر واضح :

- وهل معك توكيل من أختى .. أقصد ..

أجاب المحامى دون تردد :

- بالطبع .. فسعاد هانم سجلت لى توكيلاً عن نفسها فى السفارة المصرية وأتمت جميع الإجراءات التى تمنحنى صلاحية التصرف فى هذا الموضوع.

بدأ العرق يتصبب من جبينه، وازداد إحساسه بالاختناق بشكل واضح، مما دفع الرجل أن يسأله مباشرة :

- هل تشعر بشىء يا أحمد بك ؟

- أجاب بصعوبة :

- لا أبدًا.. ولكن.. أقصد.. فى الحقيقة أنا .. و..

توقف عن كلماته المبهمة والمبتورة وصمت فجأة، وهو يركز نظرته تجاه أسفل قدميه، وكأنه يبحث عن مخرج لأزمته.

و.. مرة ثانية يتساءل رزق كامل ولكن بجدية أكثر :

- ماذا عن الأمر يا أحمد بك.. أراك مضطربًا بعض الشىء!!.. هل هناك مشكلة.. أم تفضل أن يكون تعاملى مع محاميك الخاص.. أنا شخصيًا ليس لدى مانع إذا كان ذلك سيسبب لك أى حرج.

مسح وجهه بكفيه، وكأنه يتأكد بأن ما يراه هو أمر واقع وليس كابوسًا.. ثم رفع رأسه ملتفتًا إلى المحامى وقد غشت ملامحه أسارير الاكتئاب والحيرة.. وقال بنبرة متحشرجة :

- أنا لا أنكر أننى فوجئت بحضورك يا رزق بك.. بالرغم من أننى كنت أنتظر تلك اللحظة طوال السنوات الماضية. ولكن يبدو أن التوقيت جاء فى غير صالحى.

تساءل المحامى بهدوء :

- ماذا تقصد يا أحمد بك ؟!

حاول أن يلملم شتات اتزانه .. وأجاب :

- كل ما أطلبه من سيادتك أن تحاول تضع نفسك فى موضعى. فأنا رجل أمضيت أكثر من خمسة عشر عامًا أصارع كل ألوان القهر والاحتياج.. ذقت مرارة الحرمان وشظف العيش.. خمسة عشر عامًا وأنا أرى كل يوم حلمًا من أحلامى يتساقط كأوراق الخريف. أعيش كخيال الظل.. مجرد صورة آدمية بلا كيان أو هوية. عاجزًا ومقهورًا بالرغم من نضارة شبابى.. و.. متسولاً لحقوقى الطبيعية فى الميراث.

رفع رزق كامل نظارته الطبية من فوق عينيه، فظهرت بوضوح مقلتى الصقر، وكأنه يتأهب للانقضاض على فريسته.

وعاد يستوضح مرة أخرى وقال :

- لا زلت غير فاهم لمقصدك .. ليتك تتحدث فى الأمر مباشرة.

أجاب فى شبه الهمس :

- سأخبرك بكل شىء.. فمن الأفضل أن تعلمه منّى على أن تكتشف الحقيقة بنفسك .

- أعتقد أن هذا أفضل.. وأنا فى انتظار ما عندك.

كان أحمد فهمى حريصًا على أن تكون مبرراته منطقية ومقنعة. ولم يجد وسيلة غير استقطاب تعاطف الرجل معه من خلال سرد تاريخ حياته منذ أن جاء إلى الحياة.

ساعتين كاملتين، وهو ينتقل من حدث إلى آخر، ومن مأساة إلى أخرى. وراح يفند كيف ظلمته الدنيا وأيضًا شقيقته سعاد عندما تركته وحيدًا بلا مساندة، بل وتعمدت التلكؤ فى إنهاء توزيع الميراث.

حاول أن يستميله لموقفه.. فتساءل كما لو كان يحدث نفسه:

.. لا أعرف لماذا تعمدت سعاد أن تفعل ذلك.. و..؟

واصل سرده دون أن ينتظر من المحامى تعقيبًا على تساؤله.

وفى النهاية أشار إلى صفقة الزئبق، وهو يلمح بأنه سيقوم بإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعى فى أقرب وقت.

بينما ظل رزق كامل صامتًا، وهو يتابع حديثه بملامح جامدة دون أن يبدو عليه أى ردود أفعال، فقط كان يحاصره بنظراته الصقرية الجادة وكأنه يستعيض بها عن جهاز كشف الكذب.

وبفتور غريب لا يتناسب مع انفعالات أحمد فهمى.. قال المحامى:

- فى الحقيقة يا أحمد بك أنا ليس لى شأن فى كل تلك الأحداث التى ذكرتها.. أنا لدى مهمة محددة وليس المطلوب منى أن أحيد عنها، ولا أملك غير تنفيذها.. وتقديرًا لظروفك سأمنحك فرصة أسبوعين فقط لا غير لكى تعيد كل شىء إلى وضعه السابق. وإلا سأضطر إلى اتخاذ كافة الإجراءات القانونية ضدك.. كما أن ضميرى المهنى يحتم علىّ أن أخبر السيدة سعاد هانم بكل شىء، وسوف أتحمل تلك المهلة على مسؤليتى الخاصة.. و..

قاطعه أحمد منزعجًا ومضطربًا بشدة :

- ولكن أسبوعان غير كافيين لبيع الصفقة التى معى.. أرجوك أن تمنحنى فرصة أطول ولتكن شهر على الأقل.

أجاب الآخر بحزم :

- أسبوعان فقط .. و..

رمقه بنظرة استياء تكشف عن سخريته، ثم أردف قائلاً:

- أنا مندهشًا.. كيف لإنسان متعلم مثلك أن يؤمن بمثل تلك الخزعبلات بشأن قدرات الزئبق الذى تتحدث عنه، هذا إذا كانت أحداث تلك القصة حقيقية أصلاً.. وعلى كل حال أنا شخصيًا غير مقتنع بأى شىء مما ذكرته لى الآن.

استفزته صفاقة الرجل معه، وقال فى محاولة لحماية كبريائه:

- أنا لست مضطرًا لكى أختلق بعض الأقاصيص لك.. و..

لاحقه المحامى قائلاً وهو ينهض من مكانه :

- لا.. أنت مضطر بالفعل.. وأكرر ما قلته لك.. أسبوعين فقط وبعدها ستتحمل عاقبة كل ما يحدث بعد ذلك .

واستدار منصرفًا دون استئذان أو مراسم اللياقة فى مثل تلك الظروف.

ولأول مرة يشعر أحمد فهمى بقيمة الزمن.. أسبوعان.. ويتحدد بعدها مصيره .

الليل الذى كان يرتمى فى سدائله باحثًا عن متع الفجور، بات بالنسبة له غريمه الأكبر الذى يلتهم سويعات ليالى المهلة التى حددها له الزائر الثقيل وكيل شقيقته سعاد. بحث عن هيفاء فى كل مكان.. ارتاد الملاهى الليلية المعروفة وغير المعروفة لعله يعثر عليها، ولكنه لم يجدها.. سأل كل من له صلة بها، وعن كل من له علاقة بجماعات المجاذيب من عبدة الشياطين وأتباع خفافيش الحضيض

والمنحلين، ولكنه فشل أيضًا. وكأنها تبخرت مع مباخر المجون والفجور.. و.. بخور الوهم .

كان يبحث عنها لكى تعاونه فى إتمام بيع صفقة الزئبق أو صفقة الملايين التى ستحل له جميع مشاكله وتحميه من عواقب تهديدات المحامى.

وأخيرًا.. هداه تفكيره لأن يذهب بمفرده إلى أحد العملاء من راغبى شراء الصفقة من ضمن الذين جاؤه فى السابق وساوموه على شرائها، ولكنه تدلل فى حينها طمعًا للمزيد فى قيمة المبالغ المقترحة منهم .

لا وقت للتدليل الآن. وعليه أن يقبل بأفضل الأسعار.. وكان أفضلهم عند أحد رجال مافيا التهريب والتجارة المشبوهة. و.. هناك كانت فى انتظاره الطامة الكبرى، والصدمة الأكبر عندما أبلغه المشترى بأن بضاعته ما هى إلا وهمًا، بعد أن اكتشف أنها مجرد خليط من مكونات طبيعية وكيميائية امتزجتا بحرفية كبيرة ومدربة.

أفقدته الصدمة توازنه.. وسقط فى دوامات سحيقة من الذهول والرعب، ووجد نفسه ما بين اتهامات المشترى له بأنه نصاب محترف جاء محاولاً خداعه، وما بين إحساسه بالمصيبة التى تنتظره بعد أيام قليلة عندما تنتهى المهلة.

أصبح شروق الشمس بالنسبة له مخيفًا ومرعبًا، فكل صباح معناه سقوط ورقة أخرى من أوراق المهلة المقررة، وانتهاء صلاحية العملة التى بين يديه. وباتت ثروته مجرد أيام معدودة فى خزينة عمره.

راح يقطع الطرقات بسيارته، وبالرغم من أنه كان لديه الهدف، ولكنه هدف بغير اتجاه .

همس إلى نفسه :

.. ماذا أفعل.. وماذا ستفعل بى الليالى التالية.. أيمكن أن تكون تلك نهايتى. هل كانت هيفاء مشاركة فى تلك الخديعة ولكن.. أين هى الآن؟!

فجأة قفزت إلى مخيلته صورة عادل نجيب.

ردد فى أعماقه.. نعم هو الملاذ الوحيد.. و.. الأخير.

قرر أن يذهب إليه، وهو يحمل فوق صدره أثقالا من الخوف والمصير المحتوم.

ذهب إليه طالبًا المشورة.. و.. أيضًا إمكانية استرداد المبلغ الذى رصده فى مشاريعه سابقًا، لعله تضاعف الآن. أو لعل صاحبه يضاعفه له باسم الصداقة وزمالة السهرات الصاخبة.. و.. قد يجد هيفاء عنده!!

وما أن التقى به فى مكتبه، بادره بلهفة كبيرة قائلاً:

- أين أنت يا عادل بك.. لقد بحثت عنك طويلاً.. أنا فى أشد الاحتياج لك ولمعاونتك!

أطلق عادل ضحكة عالية مقهقهًا.. ثم أجابه مستظرفًا :

- أشك أنك بحثت عنى كثيرًا كما تقول.. فأنا ليس لى ضفائر صفراء، ولا عيون زرقاء.. ولا.. قوام هيفاء!!

ظل عابسًا وهو يجلس أمام مكتبه.. ثم قال :

- الأمر خطير يا عادل بك.. فأنا فى ورطة ولا أعرف كيف سأتخلص منها.

ارتسمت ملامح الجدية بعض الشىء على وجه عادل نجيب، وتساءل :

- أى ورطة يا أحمد بك.. أخبرنى بكل شىء؟!

و.. أخبره.

حكى له كل تفاصيل لقائه بالمحامى، وعن موضوع الزئبق الأحمر، وعن اختفاء هيفاء.. و.. الخديعة التى تعرض لها فى تلك الصفقة المزعومة. وأيضًا عن توقعاته بالمصائب التى تنتظره.

كان عادل نجيب ينصت إليه باهتمام دون أن يعقب على كلماته، وأيضًا بلا أدنى انفعالات أو تأثر لموقف صديقه.

وعاد أحمد يتساءل بحيرة واضطراب :

- لا أعرف ماذا أفعل يا عادل بك.. اختفاء هيفاء يؤكد لى بأننى تعرضت لعملية نصب مدبرة بمساعدتها.. و..

قاطعه بفتور :

- لا تظلمها يا أخى.. فربما تكون فى رحلة سفر أو مريضة.

أسرع يسأله بشغف :

- هل تعرف عنوانها يا عادل بك؟!

ضم شفتيه بقوة .. ثم أجاب بهدوء :

- لا .

صرخ بانزعاج :

- أموالى التى فقدتها.. كيف سأستعيدها؟!

أجابه بنبرة فاترة :

- أنت كنت ملازمًا لها طوال الفترة الماضية.. لدرجة أنكما انفصلتما عن مجموعتنا.. كيف لا تعرف عنوانها أو أين تجدها؟!

رمقه بنظرة متشككة قبل أن يقول :

- لقد تعرفت عليها من خلالك .

قال باقتضاب :

- هى كغيرها من الفتيات الأخريات، اللاتى كانوا يتواجدن فى سهراتنا الخاصة.. أليس كذلك ؟.

بدأت الريبة تتسلل إلى صدره أكثر وأكثر، بأن يكون عادل نجيب أحد أضلاع عملية النصب التى تعرض لها.

حاول أن يتماسك وهو يسأله بحذر :

- وماذا عن المبلغ الذى أعطيته لك ؟!

أجابه بثقة :

- تقصد النصف مليون جنيه.. أنت تعلم حال السوق.. فأنا تعرضت لخسائر كبيرة، ولأجل صداقتنا لم أحاول أن أحملك أى جزء من تلك الخسائر بصفتك شريكى فى المكسب والخسارة.

همس بانكسار :

- هل تتخلى عنى أنت أيضًا وأنا فى هذه المحنة ؟!

ادعى الانزعاج وهو يقول :

- كيف تقول هذا يا أحمد بك.. أنت صديقى.. وأنا تحت أمرك فى أى شىء.. ولكن امنحنى الوقت لكى أستعيد مكانتى فى السوق.. وستجدنى أول من يساندك لكى تحل مشاكلك.

بدا الغضب واضحًا على وجهه وهو يقول بنبرة مختنقة :

- سأدخل السجن.. أنت تعلم أن الأوراق كلها مزورة :

أجابه ببلادة غير متوقعة :

- كل شيء تم بمعرفة هيفاء وأيضًا من خلالها.. أنا دورى كان لمجرد تزكيتك، عندها فقط .. و..

صمت لحظة ازدرد فيها ريقه.. ثم أردف قائلاً :

- ثم هذا ليس ذنبى.. فأنا حاولت مساعدتك بحسن نية.

- أفهم من ذلك أننى انتهيت.. و..

قاطعه مرة ثانية وبخبث واضح :

- لا تكن متشائمًا.. فلكل شيء حل.. وستجده إن شاء الله.

نهض من أمامه فجأة، وهو يطحن أسنانه بعضها ببعض.. ثم قال:

- نعم لكل شيء حل.. وسأجد الحل فى الوقت المناسب وأيضًا أوعدك بأننى سألتقى بك قريبًا لأخبرك به.. ولكن بطريقتى.

واستدار منصرفًا بعد أن تأمله بنظرة قاسية ملؤها الغضب والكراهية.

●●●



إحساس غريب أحكم قبضته على وجدانه.. مشاعر متباينة لا يعرف مصدرها ولا كيف يتخلص منها.. كل شىء تحول فجأة إلى معان مطلقة غير محددة الهدف. الكراهية والبغض افترشا رئتيه، وكأن الأرض تحت قدميه قد فقدت الجاذبية وباتت خطواته كما لو كان يسبح فى الفضاء فتارة تطيح به إلى جانب وما تلبث مرة ثانية تقذفه إلى جانب آخر.

كل شىء فى عينيه تحول إلى اللون الرمادى القاتم، والسماء يتساقط منها شلالات ضبابية تخفى ملامح الأشياء، والناس من حوله استشعرهم كالديدان فى القبور التى تتأهب لافتراس جثته الهامدة.. ذهنه توقف عن التفكير، حاله من الجمود والتبلد فاجئت وجدانه وكأنه فى حلم خادع أو كابوس مرعب.

لحظة من عمر الزمن لفظت فجأة من جوفها حقيقة واقعه الجديد ليكتشف أنه أصبح وحيدًا وشريدًا.. ومقهورًا.

.. أين الناس ؟!

.. أين الأصدقاء؟!

.. أين رفقاء ليل المجون والعبث؟!

.. أين الآمال والأحلام الوردية ؟!

و.. طرأ على فكره رغبة شديدة لأن يذهب إلى محمد نعيم لعله يسانده فى محنته، وقد يستعين به لمواجهة موقف عادل نجيب صديقه الحميم.. وأيضًا قد يكون على معرفة بعنوان هيفاء.

لم ينتظر طويلاً لتنفيذ تلك الفكرة.

ذهب إلى مسكن محمد نعيم.. طرق الباب وانتظر، مضت دقائق استشعرها ساعات طويلة.. عاود الطرق مرة أخرى وثانية.. و.. ثالثة.

لا أحد يجيبه، ولا أحد يغيثه!

هبط إلى الباب الخارجى للبناء، وراح يتلفت فى كل اتجاه باحثًا عن حارس العقار.. لمح أحد الجيران وهو ينصرف من شقته، اتجه نحوه وبادره قائلاً :

- من فضلك.. أنا أبحث عن حارس العقار ولا أجده.

أجابه الرجل مبتسمًا :

- العقار بلا حارس منذ سنوات.. هل من خدمة أستطيع أن أقدمها لك ؟!

رفع نظره إلى أعلى بلا اتجاه محدد.. ثم قال :

- أود أن أسأل عن أحد أصدقائى الذى يقطن فى الدور الثالث.

- ما اسمه ؟

- محمد بك نعيم .

اكتئبت ملامح وجه الرجل قبل أن يجيب بتأثر :

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. أتسألون عنه الآن؟!!.. الله يرحمه مات وحيدًا.. ولم نعرف بوفاته إلا بعد أن تسريت الرائحة الكريهة من شقته.. مسكين!!.. لقد تعفنت جثته دون أن يشعر به أحد. فاضطررنا لإبلاغ الشرطة التى اتخذت الإجراءات اللازمة فى مثل تلك الأمور.. و..

صمت لعدة لحظات، ثم بادره بالسؤال متعجبًا :

- كيف تقول أنك صديقه ولم تسأل عنه طوال الفترة الماضية!!.. الشرطة بحثت طويلاً عن أهله إلى أن عثروا على شاب يقال إنه ولده.. ولا أعرف إن كان قد استلم جثمانه من المشرحة أم لا.. فالشقة استردها صاحب العقار.

كان أحمد فهمى ينصت للرجل بذهول دون أن ينبس بحرف واحد، إحساسه بالصدمة أفقده القدرة على التحاور مع الرجل.. وبلا توقع استدار منصرفًا وهو فى شروده الصامت .

استقل سيارته واتجه بها تلقائيًا إلى موقع الكافتيريا التى كان يعمل بها قبل أن تتغير حياته، وكأنه يبحث عنه ولعل يجده جالسًا وسط الحاشية المعتادة كسابق عهده، أو لعل الجار كانت معلوماته غير دقيقة .

توقف أمام الكافيتريا، وانتقل سيرًا على قدميه فى اتجاه الكورنيش وهو يتأمل نهر النيل الهادئ الذى افترشت أشعة الشمس سطحه. و.. بدأ يستدعى ذكرياته مع محمد نعيم الذى لم يكن يدرى أن لقاءه الأخير معه كان لقاء الوداع .

.. مات محمد نعيم وحيدًا، بعد أن كان ملئ السمع والبصر، يحيط به جموع المنافقين والمستفيدين وخفافيش ليال السهر.

.. مات الرجل الذى كانت تسبقه وهو حى رائحة أفخم العطور. ولم يشعر به أحد إلا من خلال رائحة عفن القبور.

همس إلى نفسه :

.. و.. أنا.

أيكون ذلك هو مصيرى أيضًا؟!

الناس من حولى تلاشوا وانفجروا كفقاقيع الماء فى الفراغ والعدم. أين كلمات الإطراء وأمنيات الثراء.. و.. أين الحب والوفاء؟!

ريم فريد تخلت عنى وتنكرت لوعودها وأحلامنا.. أختى سعاد ستصبح سببًا مباشرًا لدخولى السجن وتشريدى.. و.. هيفاء اغتصبت متعتى وغابت دون مبرر!!

وعادل نجيب يناور كالنصابين.. و.. محمد نعيم رحل بلا عودة.

.. و.. أنا.

كيف سأواجه ذلك الواقع الجديد، الذى توحش فجأة وكأنه يرصدنى عن عمد انتقامًا منى.

ألم يكن من حقى أن أختار غيره؟!.. هل هى علاقة حتمية لا اختيار ولا تفضيل فيها؟!

ما فائدة إذن عقولنا ورغباتنا وأحلامنا وطموحاتنا؟!.

ما فائدة كل شىء، إذا كانت كل الأشياء مفروضة علينا؟!

لا.. لن أستسلم لهزيمتى، وسأثبت للجميع ولذاتى إننى كنت على حق فى قراراتى.. وسيندم الجميع!!

و.. عاد إلى سيارته متجهًا بها إلى منزله.

وعند وصوله، توقف أمام المصعد وهو يتلفت حوله باحثًا عن عثمان النوبى. ناداه بصوت مرتفع، وبعد لحظات ظهر الرجل العجوز منصرفًا من غرفته، وهو يكاد يخطو بصعوبة بالغة.. وما أن اقترب منه حتى صرخ فى وجهه بحدة:

- أين أنت يا رجل.. المصعد معطل وأنت جالس فى غرفتك دون أن تدرى؟

وبيد واهنة ضغط عثمان على قرص استدعاء المصعد، فتحركت حباله الصلبة تمهيدًا لهبوطه.. ثم رفع نظره إليه وقال بهدوء وطيبة:

- المصعد غير معطل يا ولدى.. ولكن يبدو أنك كنت متعجلاً بعض الشئ.

لم يهتم بتلك الملاحظة.. وعاد يسأله بعصبية :

- ألم يسأل عنى أحد ؟!

أجابه باقتضاب :

- بعض الأشخاص جاؤا يسألوا عنك ثم انصرفوا .

قال بلهفة حقيقية :

- هل كانت ترافقهم امرأة.. هيفاء هانم ألا تعرفها؟!

رمقه بنظرة مرهقة قبل أن يجيبه قائلاً:

- لا .. بل كانوا أربعة أو خمسة رجال فقط.

- أعرفت من هم .. هل رأيتهم من قبل عندى ؟

فى هذه الأثناء توقف المصعد أمامهما، فتقدم عثمان وفتح بابه وهو يقول :

- لم أسألهم .

التفت نحوه وهو يتفحصه بنظرة مشمئزة.. ثم قال باستياء:

- لقد كبرت ولم تعد مفيدًا فى موقعك.. يا أخى عُد إلى أهلك طالما لم تعد قادرًا على أداء واجباتك .

وبنبرة ضعيفة أجابه الرجل :

- عندك حق يا ولدى.. فلا أحد يستطيع إيقاف عجلة الزمن.. وأنا بالفعل أصبحت شيخًا كبيرًا، ولكن ماذا أفعل.. فأنا على استعداد لتحمل كل الصعاب. فى سبيل ألا أنفصل عن هذه الجدران التى عشت بينها أكثر من خمسين عامًا.. لقد أصبحت جزءًا منها تقريبًا.

أجابه ساخرًا وهو يدلف إلى المصعد:

- اطمئن.. وستموت أيضًا بينهما.. خمسون عامًا وأنت كما أنت.

أومأ برأسه فى تأثر وقال :

- رحمة الله على والديك.. كانا من أفاضل ساكنى هذا العقار.

أغلق الباب فى وجهه دون أن يعقب على كلماته.. و.. صعد إلى شقته.

وقبل أن يقترب من بابها، فوجئ بمجموعة من الرجال يلتفوا حوله.. واقترب أحدهم منه وهو يسأله بجدية :

- أنت أحمد فهمى؟!

التفت نحوه وقد أخذته المباغتة.. ثم أجاب بحذر :

- نعم أنا .

- لدى أمر من النيابة بالقبض عليك .

لم يجد أمامه فرصة للتفكير أو الاستفسار.. مجرد دقائق قليلة وكان أحمد فهمى يستقل سيارة غير سيارته.. وقد سيطر عليه الخرس تمامًا.





كأنه استفتاء من الكون كله لإبداء الرأى فى قضية أحمد فهمى. هل يتساوى من يحاول أن يأخذ حقه بطريقة غير مشروعة.. مع من يسعى للحصول على ما ليس له حق فيه.. ولو.. بطريقة مشروعة؟!!! من هو الآثم.. القاتل الذى يبرر جريمته بالدفاع عن نفسه.. أم القتيل الذى بادر بالاعتداء؟!

كأن الجميع كان يتربص بالفرصة لكى يقول كلمته .

الطبيعة ارتدت رداء الغيوم المقبض.

و.. الأحداث تسابقت فى اتجاهه، وكأنه الهدف الوحيد لنهاية السباق.

البنك قبل المقايضة مع محامى سعاد فهمى، بأن تسدد قيمة القرض مقابل تنازله عن مصادرة الشقة.

وأيضًا اعتراف أحمد فهمى بأنه قد حصل على ميراثه بالكامل، بعد أن فقد كل شىء بدءًا من سيارته ونهاية بالأموال المتبقية فى حوزته.

ظهور ريم فريد فى مفاجأة غير متوقعة، عندما وكَّلت محاميًا للدفاع عنه، دفعت مدخراتها التى كانت قد رصدتها فى السابق من أجل إيجاد حل لمشاكلها.

كانت مفاجأة ظهورها أعظم بكثير من صدمة القبض عليه، حيث أخبرته بأنها حاولت أن تناور وتهدد بالانسحاب لعله يعود إلى رشده.. ولكنها فشلت.. وأيضًا لم تستطع التخلى عنه وهو فى تلك المحنة.

و.. جاء دور الحق العام ليقول كلمته.. وتولى القضاء الإعلان عن تلك الكلمة.

الحكم بالسجن ثلاث سنوات لارتكابه جريمة التزوير.

وكذلك قال الواقع كلمته!!

وأصبح أحمد فهمى مجرد مجرم.. بل رقم من ضمن أرقام السجناء أمثاله من أصحاب السوابق الإجرامية.

قال الواقع كلمته، وكأنه ثأر لكبريائه ممن اجترأ على تغيير إرادته.

أطلقها صرخة تحذير لكل من تسول له نفسه أن يعاند واقعه!!

كان عليه أن يقدم فروض الطاعة لواقعه الجديد وهو مقهور.. استسلم لمصيره المظلم وانزوى بعيدًا عن رفقاء السجن. كان يشعر بتوأمه قضبان السجن مع أضلع صدره.

تساوى عنده كل شىء.

لا فرق بين الليل والنهار، وما بين النوم واليقظة، والحديث والصمت. وما بين الحركة والسكون.

كل الوجوه متشابهة الملامح فى نظره. وكل المشاعر لا توحى بأية معانٍ. بحث عن ذكرياته فلم يجدها، وعن توقعاته للغد فلم يرصدها.

أصبح كيانًا بلا وجدان.

الشبع كالجوع، والعطش كالارتواء.. البكاء الصامت كالنحيب. والإحساس متبلدًا.

لا فرق بين أى فروق.. فقد الإحساس بالرغبة أو بالحرمان.

و.. كان من الطبيعى أن يثير انطواء الوافد الجديد، فضول النزلاء القدامى!

تقدم أحد ثلاثة تضمهم مجموعة واحدة.. وتوجه إليه قائلاً:

- الانطواء لن يفيدك بشىء.. ولن يغير من الأمر شيئًا.. فمن الأفضل أن تنضم إلينا، فتلك هى الوسيلة الوحيدة للتخلص من إحساسك بالقهر.

أجابه بفتور قائلاً:

- ومن قال لك إننى أشعر بالقهر !!

ابتسم الرجل بهدوء.. ثم قال وهو يشير نحو رفقائه:

- لأننا جميعًا هنا نشعر بذلك الإحساس.

و.. بدأ التعارف بينهم .

كانت المجموعة تضم مستويات علمية وثقافية متقاربة.

فمحدثه الأول كان رجل أعمال ناجح وثرى، والثانى كان يعمل فى مجال خدمات وصناعة السفن الصغيرة، والثالث كان يعمل وكيلاً لإحدى الوزارات الخدمية.

وعن نفسه سرد عليهم قصته بالتفصيل، وعن أسباب انضمامه فى النهاية إليهم. ومضت الليالى متشابهة، وكل واحد منهم راح يسرد قصته مع أحداث ماضيه بطريقته الخاصة.

وكأن الجميع كانوا يبحثون عن مبرر لأفعالهم.. وأنهم جميعًا قد دفعوا ثمن طهارتهم وبراءتهم أمام عالم من البشر لا يعرف الرحمة أو العدل!!

وتطوع أولهم رجل الأعمال بالمبادرة كى يحكى حكايته مع حياته السابقة كان مزهوًا وهو يخبرهم بأنه فهم الحياة منذ بدايته، وأدرك أن المال وحده هو هبة الدنيا لإسعاد الجميع.. تزوج ثلاث مرات وكان يغدق على زوجاته بالأموال بلا حدود، وانخرط فى علاقات غير شرعية متعددة وأيضًا كان يغدق عليهم مبالغ لا حصر لها. أخبرهم بأنه اعتنق مبدأ بأن لا شىء بدون مقابل، فكان يمنح

المقابل المادى مقايضة بالبحث عن حريته الشخصية والتهام كل فرص المتع فى الحياة.. تعددت تخصصات تجارته ضمانًا لعدم الانكسار فى أى خسارة مفاجأة.

و.. صمت للحظة وكأنه يجتر الحادثة الأخيرة.. ثم عاد يواصل سرده ويخبرهم بمأساته التى انتهت بدخوله إلى السجن، وذلك عندما اكتشف خيانة زوجته مع أحد شركائه فى أعماله.. وتحين الفرصة لكى ينتقم لشرفه وكرامته وقرر أن يضع لها سمًا قاتلاً فى طعامها دون أن تشعر.. ولكن الأمر اكتشف.. وحوكم بتهمة الشروع فى القتل.

و.. فجأة ضحك بسخرية وهو يتساءل كما لو كان يحدث نفسه:

.. لا أعرف ما هو ذنبى!.. لقد خرجت خالى الوفاض مثلما كنت فى بداية حياتى.. لا زوجات ولا أبناء ولا مال.. ولا أمل.

ما هو خطأى.. فأنا لم أبخل على أحد.. ولم أعتد على أحد، وكنت حريصًا على أن يشاركنى الجميع فى متع الحياة.

يا لها من حياة غادرة.. و.. ناس أكثر غدرًا !!

ثم التفت إلى صاحبه الثانى رجل الخدمات البحرية وصناعة اليخوت الصغيرة.. وقال بجدية :

- الآن.. جاء دورك لتقص علينا حكايتك .

بدا على الرجل الثانى أنه لم يكن مستعدًا لسرد قصته مثل الآخرين، وأخذته المباغتة لعدة لحظات وكأنه يستعيد أحداث ماضيه، وقد ارتسمت أسارير الندم على وجهه، كما وضعت بصماتها على نبرة صوته حينما بدأ حديثه قائلاً:

- عشت حياة قاسية وجافة منذ مطلع شبابى، فظروفى العائلية لم تكن تسمح لى أن أتعايش مع مراحل عمرى بصورة طبيعية. ولا أعرف إن كان القدر هو الذى يرصدنى أم الشيطان.. أم أن العيب كان من داخلى بعد أن فقدت السيطرة على رغباتى المتداخلة ما بين الطموح والخوف من المستقبل.. و.. حقدى على المجتمع المحيط بى.. لقد ذقت مرارة الغربة وأنا لا زلت فى مقتبل عمرى، عملت فوق السفن التجارية والعبارات فى مهن متواضعة جدًا لا تتناسب مع مؤهلى العلمى، حيث تخصصت فى دهانات الأعمدة الخشبية والمعدنية لأسطح تلك السفن.. مررت على أغلب موانئ العالم دون أن تطئ قدماى أى أرض لها.. ليال طويلة كانت بشرتى تتشقق من شدة الصقيع، وليال أخرى أطول كان تحترق من قسوة الشمس. كنت أدخر كل ما أحصل عليه من عملى.

ومرت سنوات طويلة وأنا فى غربتى إلى أن تعرفت على شخص يمتلك شركة لخدمات السفن فى ميناء بورسعيد.. وشاعت

الظروف أن نتقارب نفسيًا وفكريًا مما شجعنى لأن أعرض عليه فكرة مشاركته فى مشروعه.. وكانت تلك هى البداية.. وانتهى الفقر من حياتى تمامًا، ولكن لم ينته إحساسى بالخوف منه دائمًا. انحصرت كل اهتماماتى فى عملى فقط. وازدادت طموحاتنا فأنشأنا مصنعًا لتصنيع القوارب البحرية بالإضافة لصناعة اليخوت للأثرياء.

و.. عاد لصمته من جديد ولكنه فى هذه المرة كان صمتًا متشحًا بالشرود والذهول.. ثم أردف قائلاً:

.. ولا أعرف كيف.. ومتى.. ولماذا .. فعلت فعلتى!!

ولا أحب أن تسألوننى ، لأننى لن أجيب.

المهم هى النتيجة.. لقد أصبحت المالك الوحيد لتلك المنشأة الصناعية وأيضًا لشركة الخدمات الكبرى.

وكان من الطبيعى أن أبدأ أمارس حياتى بالصورة التى تتناسب مع إمكانياتى المادية وقدراتى الذهنية البالغة الذكاء.. وانتابتنى رغبة جامحة لتغيير واقعى وأن أصبح مثل بعض رجال الأعمال الذين يصفونهم بالمليارديرات.. وبدأت أتعاون مع مافيا المخدرات، وكانت مهمتى هى التقاط بضاعتهم من السفن الكبيرة، وأنقلها بأحد اليخوت الخاصة بى إلى مكان آخر معلوم للتجار المحليين.. وهكذا.. إلى أن استطاع شريكى السابق أن يجند أحد رجالى

العاملين معى وعرف منه قصة تجارتى الجديدة.. فكانت فرصته للانتقام منى. وأرشد عنى رجال الشرطة.. وتمت محاكمتى بمدة عشر سنوات.

ولا يزال السؤال الحائر يطاردنى.. ما هو الدافع الحقيقى وراء تصرفى هذا؟!!

هل كان القدر.. أم الطمع.. أم الشيطان.. أم ماذا؟!!

و.. عندما جاء الدور على الرجل الثالث.. لم يستطع أحمد فهمى أن يتبين حرف واحد مما قاله الرجل.

حيث قفزت إلى خاطره صورة الكافيتريا، وعادل نجيب ومحمد نعيم والآخرين. وكأنهم قد تشكلوا فى ملامح أخرى وأصبحوا هم أنفسهم الذين يرافقونه الآن فى السجن.

الجميع اشتركوا فى رغبة و احدة ومتشابهة بما فيهم هو.. وهى الخلاص من واقعهم ومحاولة استبداله بواقع آخر يتناسب مع طموحاتهم. فأصبحوا كالنيران التى تأكل نفسها، وباتت ذكرياتهم وقودًا مشتعلاً يقتات من وجدانهم .

وعاد إلى انطوائه مرة أخرى.. فلم يعد يحدث أحد ولا يقترب من أحد وكأنه يتجنب ذكرياته عن ماضيه بالابتعاد عن الجميع.

إلى أن جاء صباح غير كل صباح. وفوجئ باستدعائه لوجود زيارة من فتاة بتصريح خا ص له.

شعر بنبضات قلبه تتدافق بقوة. حتى كاد يسمعها بأذنيه.

تصورات كثيرة راحت تتراقص فى ذهنه وهو فى طريقه لاستقبال الزائرة. همس إلى نفسه .

.. ترى ماذا تريد هيفاء من تلك الزيارة !

.. لعلها شعرت بالندم وجاءت تبحث معى عن حل.

.. من المؤكد أنها كانت فى رحلة سفر .

.. سأقبل أى تبرير تقوله .. المهم أن تعيد لى أموالى!!

و.. فجأة اختلطت المشاعر فى صدره، ما بين الإحباط والسعادة، وما بين انهيار الأمل وحنين الأشواق.

انتابه إحساس غامض، وكأنه يتساءل فى أعماقه إلى أى اتجاه يسير. لحظة جمعت فى ثناياها موقفين متلاحمين بالرغم من تناقضهما. إلا أنه كان فى أشد الحاجة إلى أحدهما!

كانت طالبة الزيارة هى ريم فريد.. وليست هيفاء.

وبالرغم من أن المواجهة مثيرة للأشجان، إلا أنها كانت أقرب إلى لقاء الغرباء! وما أن رآها حتى بادرها بثقة :

- كنت أعلم جيدًا أنك لن تتخلى عنى.

أجابت بنبرتها الهادئة :

- حاولت أن أخيب ظنك .. ولكنى فشلت !!

- ما بيننا أعظم بكثير وأقوى من أن تقهره الظروف.

كان الحزن يطوف بعينيها وهى تقول :

- تقصد الأخطاء والتهور.. فالظروف ليست طرفًا فيما حدث لك.

بدا غير مقتنعًا بملاحظتها.. ولكنه آثر ألا يهدر الوقت فى المجادلة. وقال بجدية :

- انصتى إلىّ جيدًا يا ريم.. فأنتِ الأمل الأخير لى.. أستحلفك بكل ما بيننا، وأرجوك أن تتفهمى موقفى بعقلانية.. فأنا فى أشد الاحتياج لمعاونتك.. ولن أجد إنسانًا أثق فيه غيرك.. و..

تدخلت فى حديثه متسائلة :

- ما الذى يمكننى أن أفعله من أجلك يا أحمد ؟

صمت لعدة لحظات، وكأنه يحاول تذكر ماذا يريد منها.. ولكنه فاجأها متسائلاً :

- قبل أى شىء.. أريد أن أعرف كيف ولماذا بادرتى بالاتفاق مع محامى للدفاع عنى.. وما هو موقف خطيبك نبيل من تصرفك هذا؟!

- لقد أخبرتك فى لقائى الأول بك أثناء التحقيقات الأولى

معك.. إننى حاولت أن أثير مشاعرك، وأوحيت لك بأننى راغبة فى الانفصال تمامًا عنك، لعلك تتراجع عن أفكارك الغريبة.. ولكنى للأسف فشلت.

وابتعدت بنظرتها بعيدًا عن وجهه.. واستطردت :

- أما عن لماذا أقدمت على مساعدتك.. فسؤالك هذا لا أجد له عندى تفسير غير أننى لم أشعر بالحب الأول قط إلا لسواك.

أطلق زفرة طويلة من صدره قبل أن يقول :

- الآن ازداد يقينى أنك سوف تنفيذين ما أطلبه منك .

قالت بصدق :

- سأنفذ ما تريده مهما كان الأمر.

تلفت حوله بحذر.. ثم قال بهمس :

- لقد أخفيت أمبول الزئبق داخل صندوق الإنارة الذى يعلو باب شقتى.. وأخشى أن يعثر عليه أحد. ولذا أرجوك أن تفعلى المستحيل لكى تحصلى على هذا الأمبول وتحتفظى به عندك.. فأنا لا زلت أفكر فى طريقة أسترد بها أموالى.. أرجوك يا ريم أنتِ الأمل الوحيد.

شردت متأملة لملامحه وهى صامتة، فازداد حماسه مستطردًا:

- اذهبى إلى عادل نجيب واسأليه عن هيفاء.. أو استفسرى منه إذا كان فى مقدرته مساعدتنا.. فنحن يمكننا بيعه بنفس الطريقة التى تمت معى.

قالت وهى تخفى توترها :

- تقصد نشارك فى عملية نصب أخرى.. و..

قاطعها وهو يكبت انفعاله :

- ليس أمامنا غير ذلك.. ثم أنا لست نصابًا أو سارقًا.. أنا مظلوم كما تعلمين، ذنبى الوحيد أننى حاولت استرداد حقى فى الميراث.. ما هى خطيئتى.. أرجوك يا ريم لا تساندى الأيام على قهرى أكثر من ذلك.. و..

أخبرها بعنوان مكتب عادل نجيب .. ثم أردف:

- ما تبقى من عمرى ومستقبلى أصبحا بين يديك الآن.. إذا كان ما زال لى مستقبل!!

شعرت بالاختناق وهى تجيبه بصعوبة :

- ومستقبلى أنا .. ألم تفكر فيه ؟!

أسرع قائلاً بلهفة :

- أنا وأنتِ مصيرنا واحد يا غالية.. وبعد انقضاء فترة سجنى لن نفترق أبدًا.

لم تستطع مقاومة اغروراق عينيها بلمعة الدموع، وحاولت أن تبدو متماسكة وهى تقول :

- عندك حق.. فأنا لن أساند الأيام على قهرك.. وسأفعل ما يجب أن أفعله .. ليس من أجلك فقط.. ولكن.. من أجلى أنا أيضًا.

و.. طلبت الانصراف من قبل أن تنتهى المدة المحددة للزيارة.

وعاد هو إلى محبسه، واتخذ لنفسه مكانًا يتقوقع فيه بعيدًا عن الآخرين، وراح يعيش فى حلم اليقظة والأمل يدغدغ مشاعره مزهوا بنفسه وبقدرته على تسيير الأمور حتى وهو وراء قضبان السجن .

●●●



كان الفجر قد بدأ يلملم بأنامله الفضية ستار الليل الطويل.

لحظة تراض ووئام جمعت بين كل الظواهر الكونية.

السماء صافية بعد أن تخلصت من أثقال السُحب الضبابية العالقة بسطحها، وأفرع الأغصان تتمايل مع النسمات الباردة، دون أن تقتحم سكينه أعشاش الطيور الناعسة، والقمر ينسحب من موقعه فى سلام تمهيدًا لاستقبال شروق الشمس، التى اعتاد على وداعها واستقبالها طوال عمر الماضى وبداية الزمن، دون ملل أو كلل على أمل أن يلتقى بها يومًا.. حتى ولو كان ذلك هو لقاء الفناء.

و.. ريم فريد تدور مع خطواتها وسط غرفتها، والحيرة تملأ كيانها قبل جفونها.. فهى لم تنم ولم تهدأ، وأيضًا لم تكن ثائرة.. هى فقط حائرة. وكأنها تنتظر وجدانها الذى اغترب فجأة، ولا تعرف متى سيعود.. كما لو كانت تنتظر قراره.

وما أصعب القرارات المصيرية؟!!!

هى تدرك أنها لن تستطع إنقاذ الحب من قبل أن يلفظ أنفاسه، إلا من خلال دواء تشتريه بأموال الشر والكراهية.

ولن تستعيد كبريائها الذى أنهكته الصراعات، إلا بتطويع مبادئها وأخلاقياتها لمصلحة من لا شرف لهم.

وتدرك أيضًا أنها مطالبة بأن تقايض بنقاء ماضيها من أجل مستقبل يبدو مشرقًا، ولكنه يضاء بلهب الجحيم.

فما تكاد تطل من نافذتها وتمسح الفراغ بنظرها دون أن ترى شيئًا، حتى ما تلبث وتعود إلى وسط غرفتها، وهى تجتر مرارة الانتظار فى حلقها.. لحظات ترقب عنيفة ومتوترة فى انتظار وجدانها المغترب لكى يرشدها إلى القرار السليم.

وكأن الطبيعة قد تعاطفت مع مشاعرها المضطربة، ولهذا لم يطل انتظارها كثيرًا. وبمجرد أن اتخذت الشمس موقعها. كانت ريم قد استقلت سيارة أجرة ووصلت بها إلى منزل أحمد فهمى بالزمالك، وطلبت من سائقها الانتظار.

وقفت أمام البوابة تتلفت يمينًا ويسارًا، وهى تحمل مقعدًا صغيرًا من مقاعد البلاچات المصنوعة من القماش، ثم دلفت بخطى سريعة عندما تأكدت من عدم تواجد أى شخص بالبوابة. ولم تصبر لاستدعاء المصعد، وقررت صعود درجات السلم بصورة أشبه بالقفزات، إلى أن وصلت للشقة، وقبل أن تلتقط أنفاسها اللاهثة. أفردت المقعد وقفزت فوقه لتلتقط الأمبول من أعلى صندوق كشاف الإنارة، وعادت تهرول هابطة كما صعدت، ولم تستعد انتظام

نبضات قلبها المرتعبة إلا أن بعد أن عادت إلى السيارة مرة ثانية، وطلبت من سائقها العودة إلى من حيث أتت.

وقت طويل أمضته وهى متقوسة فوق فراشها، والذهول يسيطر على كل مشاعرها. فهى لم تكن تتخيل أنها ستقدم على تصرف كالذى أقدمت عليه!!

ولكنه الحب ..

الحب الذى يكمن سرّ سطوته على المحبين، فى أنه لا يفرض عليهم شيئًا، ولكن يدعهم يتصورون أن كل أفعالهم من أجل أحبائهم هى من صميم إرادتهم .

والحقيقة غير ذلك !

فالحب سلاحه الخيال، وعن طريقه تتعملق قدراته الخارقة فى تشكيل الواقع بالصورة التى ترضى العشاق، وأيضًا قدرته على تهوين العقبات مهما كانت قاسية، كما أن لديه القدرة على تحقيق أحلام اليقظة على مسرح الوجدان فقط.. بالإضافة إلى أنه كثيرًا ما يتسبب فى إخفاء الحقائق، وأن يتلون مع واقع إلى آخر ومن مكان إلى مكان، ويحلق بأجنحة الآمال حتى ولو كانت مستحيلة.

وهى تحب.. فنفذت ما لا تريد، وجازفت من أجل ما تريد!!

و.. فى صباح اليوم التالى، بدت ريم فريد وكأنها فتاة أخرى مختلفة فى كل شىء عن قرينتها السابقة .

وبالإيحاء شعرت بأنها أصبحت أسيرة لشعوذة الأمبول الزائف، وكأنها وافدة جديدة انضمت إلى مجموعة عبدة الشيطان.

بدت كالمسحورة وهى تصفف شعرها بصورة ملفتة ومثيرة، وترتدى ملابس أكثر إثارة وفتنة، وتفننت فى وضع المساحيق ذات الألوان الصريحة والزاعقة على بشرة وجهها.

وقفت أمام المرآة تتأمل قوامها الممشوق بإعجاب، وطفرت ابتسامة راضية على شفتيها، وكأنها تكتشف لأول مرة أنها جميلة.. بل ورائعة الجمال.

واتخذت قرارها بالذهاب إلى مكتب عادل نجيب.

تنفيذًا لرغبة أحمد فهمى.. ولشيطان القلب أو لسلطان الحب. وكأن القدر قد قرر أن يغدق عليها بسخاء، وذلك عندما فوجئت بوجود هيفاء عند عادل نجيب.

أخيرًا.. وجهًا لوجه بعد رحلة طويلة من الصراع الغير مباشر بينهما.

وبمجرد ظهورها أمامهما بصورتها الجديدة، حتى بادرها عادل نجيب صائحًا:

- ڤينوس ملكة جمال الكون ضيفة عندى فى مكتبى.. هذا حلم بالتأكيد.

ولاحقته هيفاء وهى تؤيد إطراءه وقالت بميوعتها المعتادة:

- يا إلهى.. كيف كنتِ تخفين هذا الجمال الأسطورى.. ولماذا؟

وازداد انبهارها عندما فوجئا بريم تستقبل كلمات الإطراء، بأنوثة طاغية وهى تردد :

- كفى.. كفى وإلا سيقتلنى الغرور.. على كل حال أنا سعيدة بهذا المديح، وسعادتى أكبر لأننى أراكما الآن.

وبلا مقدمات، بدأ حوار الأفاعى بالتلميحات، وانتهى بالمصارحة والوضوح.

أخبرتهما ريم بما لديها من أنباء.. وأيضًا بما فى حوزتها وأصبحت تملكه الآن.

كانت المفاجأة أكبر من كل توقعات الشريكين.

وبدأ أيضًا لعاب الملايين يسيل بسبب ما أخبرته بهما الفاتنة الجديدة، والتى انشقت الأرض عنها وأظهرتها أمامهما. وكأنها ماردة من الجان، جاءت لكى تحقق أحلامهما.. وأحلام الجميع،

وكانت هيفاء أكثر جرأة فى الإفصاح عما يدور بخلدها، عندما توجهت بكلماتها إلى ريم قائلة باندهاش :

- فى الحقيقة أنا مندهشة جدًا، لحماسك الكبير لكى تساعدى أحمد فهمى.

نظرت إليها بحدة قبل أن تتساءل قائلة :

- وماذا يدعوك للاندهاش.. فأنا وأحمد نرتبط بقصة حب منذ سنوات طويلة.

قالت باستخفاف:

- هذا المبرر بالتحديد هو سبب دهشتى.. فأنا لست أدرى كيف لفتاة جميلة مثلك، تدفن جمالها وشبابها بهذه البساطة؟!

- هل الحب فى نظرك معناه مقبرة للشباب والجمال، كما تقولين؟!

أجابت بسخرية واضحة :

- عن أى حب تتحدثين.. أم تقصدين حبك له.. الذى هو من طرف واحد؟!

استشعر عادل نجيب، أن الموقف قد يتأزم بلا داع.. فتدخل قائلاً:

- دعونا من الأحاديث الهامشية.. ولنتحدث فى الموضوع الأهم.. هل معك بالفعل أمبول الزئبق.. أم..

قاطعته ريم، وأجابت بحزم:

- بالتأكيد الزئبق معى.. ولكن.. المهم أريد أن أعرف ما هو موقفكما؟!!

قالت هيفاء بثقة:

- عندى المشترى.. هو أحد الأثرياء من شمال أفريقيا، ويمكننى إقناعه بشراء الكمية.. بمبلغ لا يقل عن مليون جنيه.

فاجأتهما ريم فريد بضحكة أثارت ذهولهما بسبب طريقة إلقائها.. حيث بدت وكأنها صادرة من امرأة لعوب.. فتساءل عادل بحذر:

- ما الذى يضحكك يا آنسة ريم ؟

عادت إلى اتزانها، قبل أن توجه كلماتها إلى هيفاء قائلة:

- عن أى مليون تتحدثين.. عن المليون الذى دفعه أحمد للمحتال الأول أم عن المليون، قيمة ما معى من جرامات الزئبق؟!

شعرت هيفاء وكأنها تلقت صفعة قوية من غريمتها، واستفزها ذلك الأسلوب، فطفرت ملامح الاستياء على وجهها.. قبل أن تجيبها قائلة :

- إذا كنتى تلمحين بأننى وعادل بك أطراف فيما حدث.. فأنت مخطئة.. فالمحتال الحقيقى ليس الذى اشترى.. ولكنه البائع يا عزيزتى.

نهضت ريم بغضب.. وقالت بلهجة تحذير:

- أنا لا أسمح لك بهذا التطاول على أحمد فهمى.. والحقيقة أنتما تعرفانها جيدًا.. وعلى كل حال اعتبرا أن الموقف انتهى.. ولن يكون بيننا اتفاق.

أسرع عادل نجيب يستوقفها.. وقال منزعجًا :

- ما هذا الذى تقولينه يا آنسة ريم.. هيفاء لا تقصد إيذاء مشاعرك.. أرجوك اجلسى، ودعينا نتحاور بموضوعية.. و..

التفت نحو هيفاء.. واستطرد قائلاً :

- لا داعى لإقحام المسائل الشخصية فى الموضوع.. فنحن أمام صفقة تجارية هامة، ويجب التفكير فيها بذكاء وحرص.

وكالحرباء سرعان ما بدلت هيفاء من أسلوبها أو جلدها.. وعادت تتودد إليها بلا حرج، وقالت بهدوء:

- سامحينى يا ريم.. فكل ما فى الأمر أننى أشفق على فتاة رائعة مثلك بأن تتوهم أشياء غير حقيقية.. وخادعة.. فأنا فتاة مثلك ومن واجبى نحوك أن أنصحك .

تساءلت ريم ، قبل أن تجلس مرة ثانية :

- ماذا تقصدين بالخديعة وبالأوهام ؟

اقتربت منها بشدة.. وراحت تقبل وجنتيها.. ثم همست بخبث:

- أخشى أن أعود للحديث بشأن هذا الموضوع.. فتغضبين ثانية!!

- أعدك بألا أغضب.

قالت بتستر :

- كيف تثقين فى إنسان غدر بك وبحبك.. وباع بثمن بخس كل ما كان بينكما من أجل المال.. كيف تثقين فى إنسان استهان بصلة الرحم وتحايل على شقيقته وهى فى غربتها، دون أى اعتبارات أخلاقية أو أسرية.. ألا تذكرى ماذا كان موقفه منك بعد أن حاولتى تهديده بالانسحاب من حياته.. يا عزيزتى من كانت الخيانة فى طبعه لا يمكن لأى إنسان أن يأتمن جانبه أو معاشرته.. فهذا النوع من الرجال يضعون مصالحهم الشخصية فوق كل الاعتبارات.. فهم كالوحوش فى الغابات.. لا مشاعر ولا مبادئ ولا أخلاقيات عندهم.. وأكبر دليل على ذلك أنه تخلى عنك بمجرد ظهورى فى حياته، وأدرك أن مصلحته معى.. و.. فى أحضانى!!

سيطر الصمت الكئيب على المكان.. وبدت ريم وكأنها فقدت النطق فجأة، كانت تتابع كلمات الأخرى، وكأن أحرفها سهام مسمومة راحت تغرس أسنتها فى جسدها الضعيف.

وأراد عادل نجيب أن يقطع ذلك الصمت، أو كأنه قرر أن يوجه إليها الضربة القاضية بدهاء شديد.. عندما قال :

– الطموح الزائد عادة ما تكون نتائجه غير ناجحة.

لحقت به هيفاء.. قائلة:

– هذا ليس طموحًا.. بل طمعًا وأنانية.. وتمرد على الواقع.

ثم التفتت تجاه ريم .. وتساءلت بحنان :

– أليس كذلك يا ريم.. هل أدركتى الآن لماذا أنا متعاطفة معك؟!

وبصعوبة بالغة، أجابت ريم هامسة :

– لا أدرى.. فأنا أشعر بالإرهاق قليلاً.

وبأداء تمثيلى، حاول عادل نجيب أن يبدو منزعجًا وهو يقول :

– ألف سلامة لك يا آنسة ريم.. ألم أقل لكما لا داعى لتلك الأحاديث الهامشية!!

انتفضت هيفاء نحوها، وربتت على كتفها برفق.. ثم قالت :

– أنا آسفة يا حبيبتى.. للمرة الثانية أنا لم أقصد جرح مشاعرك.. هيا نترك المكان، ودعينى أوصلك بسيارتى إلى منزلك.

وهنا تساءل عادل نجيب بفزع :

- ما هذا يا هيفاء.. فنحن لم نتفق بعد على أى شىء!!

أجابته باقتضاب :

- ريم مرهقة .. ولا داعى نزعجها أكثر من ذلك .

ولكن ريم تفاجئها.. وتقول بثبات :

- عادل بك لديه كل الحق.. يجب أولاً أن نتم الاتفاق.

قال بفرحة :

- ذلك هو عين الصواب.. إذن ما هى طلباتك ؟

قالت بجرأة :

- ثلاثة ملايين جنيهًا.

صرخت هيفاء بصدق.. ورددت :

- ماذا .. أنتِ تمزيحن بلا شك!!

وبهدوء مثير قالت ريم :

- هذه قسمة عادلة.. فلكل واحد منا مبلغ مليون جنيه.

لم تتمالك هيفاء من شدة المفاجأة، وألقت بجسدها فوق صدر ريم وهى تردد بسعادة بالغة :

- ما أروعك!! .. لقد أحسنتى الاختيار.. وبدأت تخططين لمستقبلك بحق.

تأملها عادل لعدة ثوان قبل أن يقول بإعجاب :

- لن أسامح نفسى أبدًا.. لأننى أخطأت فى تقدير مستوى ذكائك يا آنسة ريم.. فأنت حقًا تستحقى كل التقدير.. وأيضًا الاعتراف بمواهبك.

قالت هيفاء بميوعة :

- أهكذا تتخلى عنى يا عادل بك فجأة.. ألم تعد فى حاجة لخدماتى.

ضحك ملئ رئتيه، وهو يعقب قائلاً :

- الصياد الماهر هو الذى تتعدد أساليب نصب شباكه.. وكلتاكما عندى لها فريستها التى تتناسب معها.. و..

واصل قهقهته بنشوة كبيرة.. ثم استطرد :

- وبما إننا أصبحنا شركاء.. فعندى لكما مفاجأة أخرى.. لقد قررت أن أشركما معى فى صفقة ثانية.. وبنفس النسبة فى التقسيم.

تساءلت هيفاء بشغف :

- عن أى صفقة يا عادل بك تتحدث ؟

أجاب بثقة :

- فى حوزتى بعض قطع من الآثار الفرعونية.. وأنا الآن فى

مرحلة المساومة مع مجموعة من مهربى الآثار.. والأمر لا يحتاج أكثر من سهرة خاصة.. فكما تعلمون أن عقول الرجال تغيب فى لحظات الاستمتاع بالجمال.

صاحت هيفاء بسعادة :

- إذن ننهى الصفقتين عندى فى شقتى.. وسأحدد الموعد خلال أسبوع.

ومرة أخرى تفاجأهما ريم، وهى تقول بدلال :

- بل عندى أنا !!

أصابهما الذهول بضعة لحظات.. وهمست هيفاء متساءلة:

- عندك .. كيف ؟!

أجابت بلا اهتمام :

- لقد استأجرت شقة فى مصر الجديدة.. وكنت أخطط لصفقة بيع الزئبق فيها.

قال عادل بنبرة حائرة :

- أتسمحين أن أتجاوز حدودى، وأخبرك بأنك داهية!!

وعقبت هيفاء مازحة :

- هيا بنا يا معلمتى.. سنكمل حديثنا وأنا أوصلك بسيارتى.

استجابت لها دون أن تعترض.. ثم توجهت بحديثها إلى عادل قائلة :

- سأخبر هيفاء.. بعنوان المكان والموعد أيضًا.

و.. انصرفا معًا إلى خارج المكتب.

وفى الطريق .

وجدتها هيفاء فرصة مواتية، لكى تبث أفكارها المسمومة إلى عقل ووجدان ريم فريد.

خاطبت مشاعرها بحرفية وإتقان.. كانت تغوص فى أعماق الواقع لكى تكشف سلبياته بصورة تبدو منطقية.. راحت تفند المقارنات ما بين نظرة البعض لمفهوم الحياة، وبين إدراك البعض الآخر لمعنى الحياة على حقيقتها.

وبذكاء شديد بدأت تقارن ما بين قيود المبادئ والثرثرة عن القيم والأخلاقيات، وكيف يتحمل من يتمسك بها، ألوان الحرمان والقهر، وضياع الفرص والتقوقع مع الهموم الحياتية، والبحث عن سبل مصادر الرزق من خلال الجهد والعرق والشقاء.

ثم ما تلبث أن تعدد صور الحياة المبهجة والممتعة، من منظور المفهوم الأخر لمعنى الحياة. حيث الانطلاق والتحرر من القيود الاجتماعية والتقاليد البالية، واستغلال الهبات الفطرية من جمال أنثوى وشغف الرجال للمتعة، اعتمادًا على حبهم للتنافس والتفاخر.

و.. باغتتها بسؤال مباشر :

- أنتِ شخصيًا يا ريم.. لو كان أمامك هذين الاختيارين ولا ثالث لهما.. فأيهما تختارين؟!

أجابت بهدوء من خلال ابتسامة رقيقة.. قائلة :

- أختار الاختيار الثالث!!

رمقتها بنظرة مندهشة، وقبل أن تتساءل.. أردفت ريم قائلة:

- أختار أن تتوقفى بالسيارة هنا.. لقد أصبحت على مقربة من منزلى. وسأتصل بك لأخبرك بموعدنا وبعنوان الشقة.

أوقفت السيارة ، وقالت ضاحكة :

- ذكاؤك يحيرنى.. سوف أنتظر منك المكالمة.

و.. انطلقت بسيارتها بعيدًا عنها.

السماء ملبدة وتنذر بهطول الأمطار. وريم فريد تسير وسط الزحام فى طريقها إلى منزلها، حاولت أن تسرع بخطواتها ولكن الأجساد المتزاحمة حالت دون ذلك.. انتبهت لسيارة فارهة تشق الطريق تقودها امرأة تكاد لا تشعر بوجود أحد من حولها.. زاغت عيناها تجاه محل ملابس شهير يعرض بضاعته، وكأنها فى كرنفال عالمى للأزياء الراقية. اقتربت من زجاج الفاترينة تتفحص بطاقة الأسعار، وأدركت أن الرداء الواحد يساوى راتبها لعام ونصف

العام.. رائحة العرق وملامح الاكتئاب فوق الوجوه. كادت تختنق عندما مرت من جوارها سيارة كبيرة للنقل العام، وقد أطلقت الضباب الأسود من عادم موتورها. تحسست بشرتها بأطراف أصابعها وكأنها تخشى أن تكون قد صبغت بالسواد من أثر الدخان. تذكرت عطر هيفاء، وبريق مجوهراتها.. تابعت بنظرها أحد المارة وهو يلهث خلف الميكروباص ليلحق به، وهو يحمل بعض الأوراق بيد، وباليد الأخرى يمسك ببضع أرغفة الخبز.. أحست بالقلق عندما قفز إلى خاطرها موقف مدير شئون العاملين بعد أن تخلفت عن عملها بدون إذن، حتمًا سيتم الخصم من راتبها.. تعثرت قدماها فى أحد نتؤات الأرصفة، كادت تتكفأ على وجهها.

وما أن دخلت شقتها، أسرعت تلقى بجسدها المرهق فوق الفراش قبل أن تبدل ملابسها.

وكما لو كانت الأحداث قد أطبقت فوق جفونها فأغلقتها عنوة.

بدت وكأنها استسلمت للنوم.. ولكنها لم تنم.

غابت مع أحلام اليقظة.

كيف ستصبح صورة حياتها بعد أن تملك الملايين؟

وكيف ستشفى غليلها من غدر أحمد فهمى، ومن قهر الاحتياج؟

راحت تبحث عن الفروق فى خيالها ما بين الحب فى ظل الثراء، والحب الذى يعانى من الفقر والإحباطات.

تساءلت مع نفسها .. أيهما أبقى وأقوى!!

استجدت النوم.. فعاندها.

وكأن الواقع والخيال، قد توحدا فى كيان واحد.

الأحداث توالت، ولا شىء أوقف تسلسلها.

الموعد تحدد فى شقة مصر الجديدة.. الزمان العاشرة مساء.. و.. المكان عرفه الجميع.

استقبلت ريم فريد ضيوفها.. هيفاء بصحبة الثرى القادم من شمال أفريقيا الذى اصطحب معه أحد أصدقائه من راغبى المتعة.

وعادل نجيب مع مهرب الأثار، ومجموعة من الفتيات الصغيرات فى السن ولكنهن كبيرات فى خبرة التعامل مع مثل تلك الظروف.

بدا المكان وكأنه ملهى ليلى.. الإضاءة خافتة ومتعددة الألوان.. وأنغام الموسيقى تتناغم مع ضباب سجائرهم المخدرة. والرؤوس سرعان ما دارت مع الكؤوس.. وانقسم الحضور إلى مجموعات قليلة العدد.

و.. بدأت المساومات والحوارات الجانبية.

كانت ريم أكثرهم إصرارًا وتمسكًا بموفقها بالنسبة لقيمة مبلغ الزئبق التى تعرضه للبيع. لم تخضع لمحاولات هيفاء أو لتهديدات المشترى بالانسحاب.. ولا لنظرات الإعجاب والرغبة من جانب الرجل طالب المتعة.

بينما انتحى عادل نجيب بفريسته مهرب الآثار، وراح يستعرض مواهبه فى فن التحاور والإقناع ليحصل على أعلى سعر فى بضاعته التى يمتلكها. فى الوقت الذى انشغلن بعض الفتيات بتناوب خدمة الآخرين. والبعض الآخر تفرغن فى الكشف عن بضاعتهن، من تلميحات بذيئة، وسيقان عارية، وصدور متبججة!!

وبعد مضى ثلاث ساعات، كانت وجهات النظر قد تقاربت، حيث تنازلت ريم قليلاً عن سعرها المبالغ فيه، وتراجع عادل نجيب عن بعض شروطه فى طريقه سداد المقابل للقطع الأثرية.. و.. أيضًا نجاح اتفاقية الرذيلة بين الرجل المنحرف وواحدة من العابثات.

وفجأة.. ظهر رجال المباحث من الغرف المحيطة بالردهة، وأصبح الجميع فى قبضتهم.. وكذلك التسجيلات الصوتية والمرئية لهم.

أخرستهم المفاجأة، عندما عقبت ريم فريد على كلمات قائد المجموعة لها.. قائلة:

- هذا واجبى يا سيادة الضابط.. وأيضًا حق بلادى علىّ.

وتباينت ردود الأفعال، ما بين الاعتراض والانكار، والثورة والبكاء. وبين الصمت والذهول.

وبدت هيفاء أكثرهم اتزانًا، أو عدم اكتراث للموقف.. وتعمدت الاقتراب من ريم، ووجهت كلماتها إليها فى شبه صراخ :

- يا معتوهة.. تفعلين فعلتك هذه من أجل إنسان احتقرك، .. كم أنتِ غبية وتافهة.. اللعنة عليك وعلى أمثالك.. أنتن السبب فى كل مرارة الحياة فى دنيانا.

لم تعرها اهتمامًا، ودنت من الضابط قائلة :

- أعتقد أن دورى قد انتهى.. فهل تأذن لى بالانصراف!!

التفت إليها. وقال بود :

- تفضلى يا آنسة ريم.. ولكن أرجوك الحضور صباحًا إلى مكتبى لاستكمال التحقيقات مع هؤلاء الأوغاد.. وأكرر للمرة الثانية أنك نموذج مشرف وأصيل لفتاة النيل بحق.

وقبل أن تتحرك نحو الباب.. استوقفها مرة أخرى قائلاً بأدب:

- بالمناسبة.. ستجدى سيارة أجرة فى انتظارك، لكى تصل بك إلى منزلك.

أومأت برأسها شاكرة.. وانصرفت.

وفى الطريق، تسلل إلى خاطرها كلمات هيفاء الأخيرة لها.

فهمست إلى نفسها وهى صامتة :

.. هذه الشيطانة لم تفهم أننى انتقمت لكبريائى.. وليس لأجل أى إنسان آخر.

●●●



من يشترى ما تبقى من عمرى..!

تساؤل مرير فرض نفسه على فكر أحمد فهمى، بعد أن أُطلق سراحه من السجن. ثلاث سنوات أو ثلاثة قرون. قضاها فى عزلته، غريبًا بين الغرباء، وكسيرًا كباقى الضعفاء.

عندما تموت الذكريات، ويصبح الحاضر بلا أمنيات، وتعشش الغربة فى الوجدان، وتتيبس شرايين الحناجر من قسوة الأنات والآهات.. وترحل المشاعر عن الأعماق، ويخترق القهر دماء العروق فيهلك الأبدان.. فكيف يحيا الإنسان وهو بلا كيان!

وقف يتأمل دنياه.. أسترجع كلمات ريم التى سطرتها إليه منذ سنوات فى رسالة موجزة، وأرفقت معها مبلغ خمسمائة جنيه.

.. هذا المبلغ هو ما تبقى من مدخراتى السابقة، بعد مصروفات المحاماة.

بهذه الكلمات. ومبلغ الجنيهات، وساعة يده التى استلمها من أمانات السجن. خرج يواجه الحياة من جديد.

خرج ليجد الغربة فى استقباله، بلا صديق ولا قريب، وبلا رفيق أو حبيب. هو وحده الذى كان يشعر بزلزلة الأرض تحت قدميه، وكأنها ترفض خطواته فوق سطحها.

هو وحده الذى رأى الناس من حوله، وكأنهم هياكل عظمية تبرز أنيابها من تجويفات أفواههم. وتتساقط منها بقايا قطرات دمائه. هو وحده الذى شعر بالهواء خانقًا ومسمومًا، وباحتراق رئتيه من لسعات صهد براكين الدنيا عندما تثور.

شعر أيضًا برغبة فى البكاء، ولكنه فشل فى تحقيق رغبته. وكأن الدمع قد رحل عمدًا عن مقلتيه، بعد أن سئم طول البكاء، وضاق بعذاب النحيب.

تمنى لو تمكن من الصراخ، معلنًا لكل البشر عن ضعفه ومذلته، وأنه أصبح غير قادر على مواجهة صراعاتهم.

تمنى لو استطاع أن يستجدى الجميع لكى يرحموا ذلك الإنسان الذى أصبح بلا كيان.

فما أبشع من إحساس الخوف أمام كل شىء.. حتى من الأمان.

وأخيرًا.. استقر به الترحال فى إحدى غرف المناطق الشعبية.

وبدأت رحلة الشقاء من أجل البحث عن عمل، قبل أن تنفذ الجنيهات القليلة التى تبقت معه.

كان يغادر غرفته فى منطقة الخليفة صباحًا، ولا يعود إليها إلا مع حلول ظلام الليل، وهو محملاً بإحباطات وهموم اليأس وإرهاق البدن. لم يترك كافيتريا سياحية إلا وطرق بابها. بعضها يعرض عليه أعمالاً يجهلها أو لا تتناسب مع مكوناته الذاتية. والبعض الآخر يرفضه من البداية لأسباب واهية.

كان يستشعر بأن هناك شيئًا ما يطارده.. يغلق أمامه أبواب الأمل. كيان غير مرئى يتربص بتحركاته ومحاولاته، لا يعرف ما هو!!

وكأن الجميع قد استجاب لتلك اليد الخفية التى تتعمد عرقلة كل خطواته فأقامت أمامه جبالاً من اليأس وسدودًا من الفشل.

هل كان عقاب القدر ؟

أم هو انتقام الواقع !

أو إنسان يعاديه دون أن يعلم ؟!

هو فى النهاية لا يعلم .. الشىء الوحيد الذى كان يدريه، إنه أصبح إنسانًا بلا حول ولا قوة.

ضعيفًا ومستسلمًا، خائفًا ومرتعبًا، ونادمًا فى تكتم.

كان حريصًا على ألا يظهر لريم فريد إلا بعد أن يجد عملاً. كان يخشى نظراتها الصامتة، وتلميحاتها القاسية، ويهرب أيضًا من عذاب العتاب ومرارة اللوم. ومن إحساسه بالهوان.

قـرر المجـازفة، والبـحث عن عـمل فى الملاهـى الليليـة التى طالما ارتادها وهو فى عنفوان ثرائه، وشطحات نزواته .

ولكن.. أين المفر من ذلك الشبح اللامرئى الذى يطارده أينما ذهب. فما أن وطأت قدميه مدخل الملهى الليلى مساءلاً عن مديره، حتى فوجئ به يستقبله بترحاب يفوق تصوره.. مرددًا :

- أحـمـد بك فـهـمـى. الملهـى ازداد نورًا وبهـجـة.. لقد افـتـقـدناك وافتقدنا لياليك العظيمة.. إن سعادتى لا توصف برؤيتك.

ظل صامتًا وهو يتابع كلمات الرجل، والتى التهمت شجاعته التى كانت ستساعده لكى يبوح بسبب تلك الزيارة.. بينما استطرد المدير قائلاً :

- تفضل يا أحمد بك.. سأختار لك أفضل مائدة لكى تشرف بك وبأصدقائك.

تراجع أحمد بخطوة، وكأنه يتفادى طعنة سكين حاد، ثم قال هامسًا :

- فى الحقيقة .. جئت لسبب آخر .

- طلباتك أوامر يا سعادة البك .

ازدرد ريقه بصعوبة قبل أن يقول :

- أنا أبحث عن عمل يتناسب مع خبراتى السابقة.. و..

اسكتتـه ضـحكة الـرجل المندهشـة، الذى أجـابه وهـو يتلعـثم بكلمات تعبر عن إعجابه بتلك المزحة اللطيفة.. قائلاً:

- لا زلت كعهدنا بك يا أحمد باشا، تميل للمزاح الظريف.

تغيرت ملامح الرجل، عندما لاحظ جديته وهو يقول مؤكدًا:

- أنا لا أمزح، أنا.. أقصد.. أننى فى حاجة إلى عمل.

تمتم المدير وهو يخفى ذهوله .. متسائلاً :

- مـاذا فى الأمر يا أحـمـد بك.. إذا كنت لا تمزح بحق، فـأنت بالتأكيد تحاول أن تسخر منى.

- أنا لا أسخر منك ولا أمزح.. أنا بحق فى احتياج إلى عمل.. فلقد مررت بظروف قاسية أدت بى إلى موقفى هذا.

و.. قبل أن يعقب المدير على ما سمعه، فوجئا الاثنان برجل ثالث من رواد الملهى وهو يقترب من أحمد مهللاً :

- البرنس أحمد فهمى.. ساحر النساء وعاشق الليل عندنا اليوم.

تذكره أحـمـد بمجـرد أن رآه. فهو أحد الأثرياء السفهاء الذى كان ينافسه فى قدرته على الإغداق والتبذير داخل الملهى.

وفى هذه الأثناء، كـان الرجل يتـفـحص قـامـة أحـمـد من قـمـة رأسه إلى أخمص قدمه.. ثم قال بتعجب :

- ما هذا الذى أراه، وما تلك الصورة التى أصبحت عليها يا أحمد بك!! لا أعتقد أنك ذاهب لحفل تنكرى.. على كل حال هذه فرصتى لكى أفوز بالحسناوات اللواتى كنت تحصل عليهن من خلال وسامتك وأناقتك المعروفة عنك .

لم يجبه، بل لم يستطع أن يفعل ذلك.. شعر وكأن الموت قد اختطفه على حين غرة، وكأنه انتقل إلى عالم آخر بعيدًا عن هذا الموقف اللعين. استدار صامتًا، وسار بخطى متعثرة ومنهكة منصرفًا خارج مبنى الملهى دون أن يتفوه بحرف واحد.

استقل سيارة أجرة، وأرشد سائقها عن موقع سكنه.

كان الطريق مزدحمًا بالمارة والسيارات. وبالرغم من ذلك شعر وكأنه تائهًا وسط صحراء موحشة يخيم عليها ظلام مخيف.. المصابيح من حوله تحولت فى نظره إلى عيون جاحظة لشياطين الأرض ترصد مسيرته، وكأنها تتحين الفرصة لكى تسلط إليه لهيب الجحيم.. أغمض جفنيه وغاب فى إغماءة من شدة الهزال ولم يفق منها إلا على صوت السائق بعد أوقف سيارته :

- إلى هنا ولن أستطع الدخول فى هذا الزقاق الضيق .

تلمس جيبه، وأعطاه ما تبقى معه من نقود وترجل عن السيارة متجهًا إلى بناء عتيق التصق بأبنية أخرى متهالكة خشية من الانهيار.

وقبل أن يدلف إلى غرفته، وجد مالك العقار فى انتظاره. والذى بادره بتأدب قائلاً:

- غدًا أول الشهر يا أستاذ أحمد.. أتود أن تسدد الأجرة الآن.

أجابه هامسًا :

- غدًا فى وقت الظهيرة. سأعطيك الايجار بعد عودتى من البنك.

وأغلق الباب من خلفه، وهوى فوق فراشه مستسلمًا لنوم عميق.

وفى صباح اليوم التالى، كان أحمد فهمى يقطع الطرقات سيرًا على قدميه بنفس ملابسه التى أمضى بها ليلته السابقة.. كان يعلم أنه لا يملك نقودًا تكفيه للاستعانة بأية وسيلة مواصلات تنقله إلى وسط المدينة.

اتخذ قراره بأن يذهب إلى أحد المحال الشهيرة ببيع الساعات ذات الماركات العالمية.

انتظر لعدة دقائق حتى تأكد من أن المحل لم يعد بداخله سوى مالكه. ودخل تسبقه ملامح التوتر والاضطراب، وقال هامسًا بخجل:

- أريد أن أبيع هذه الساعة الذهبية.. فبكم تشتريها؟!

تأمله صاحب المحل لعدة لحظات، كانت كافية ليتبين صورته الرثة وذقنه غير الحليقة، وشعر رأسه المنتكش، وحذاءه المتسخ.

ثم قلب الساعة بين أنامله المدربة، وعاد يتصفح ملامحه بريبة وقال متساءلاً :

- من أين أتيت بهذه الساعة ؟!

- إنها ملكى.. أترغب فى شرائها أم..

قاطعه الرجل بهدوء.. ثم قال :

- أمهلنى للحظة.. سأصعد للدور العلوى كى أفحصها جيدًا.

وصعد درجات السلم الداخلى للمحل، وغاب بضعة دقائق. ثم عاد إليه ثانية وقال بنبرة متشككة :

- بكم اشتريتها فى السابق؟

بدا على أحمد الاستياء من أسئلة الرجل.. وأجابه بفتور :

- أعتقد أن سعر الذهب اختلف اليوم عما كان عليه فى الماضى.

وقبل أن يعبر عن انفعاله، فوجئ بثلاثة رجال يقتحمون المحل ويحيطون به، وسأله أحدهم بجدية شديدة :

- أرنى ما يثبت هويتك .

أدرك فى حينها أن مالك المحل قد استدعى الشرطة بعدما ارتاب فى هيئته.. فتحسس جيوبه وقال بنبرة مضطربة :

- يبدو أننى تركت بطاقتى فى غرفتى.

لاحقه الضابط متساءلاً :

- ما اسمك ؟!

- أحمد فهمى .

- ماذا تعمل ؟!

صمت واكتفى بنظرة متخاذلة، وكأنه خجل أن يخبره بأنه بلا عمل.

تناول الضابط الساعة، ثم التفت إليه يسأله بشىء من العنف:

- ليس معك ما يثبت شخصيتك.. وأيضًا لا تعمل.. فمن أين سرقت تلك الساعة؟

وقبل أن يفوق من ذهوله، عاد الضابط مستطردًا :

- هيئتك تدل على أنك من أرباب السوابق الإجرامية.. فأخبرنى من أين سرقت الساعة، ولا تحاول أن تتاورنى لأنى سأصطحبك الآن إلى المديرية وسوف أكشف عن سوابقك كلها.

وبصوت مختنق قال أحمد فهمى :

- أنا لست لصًا.. هذه الساعة ملكى.. لقد جاءتنى هدية من أحد أصدقائى منذ ثلاث سنوات.. أنا..

لم يمهله الضابط لأن يسترسل أكثر من ذلك أو التفت نحو الآخرين قائلاً :

- خذوه إلى السيارة .

وما كاد يستقل الصندوق الخلفى لسيارة الشرطة برفقة حارسيه، حتى سقطت قدميه إلى الأرض فجأة. وكأنه أصيب بشلل تام وأصبح عاجزًا عن الحركة. وشعر برأسه تتهيئ للانفجار بعدما اندفعت الدماء إليها بشدة، وبقلبه يهتز بعنف بعد أن اختلت منظومة نبضاته.

لم يعد فى الكون هواءً يستنشقه، وتجمد كل شىء من حوله.. لا حركة ولا صوت .. ولا زمن .

فقط.. صورة ريم فريد وهى تسير بجوار نبيل حلمى وهما يدفعان أمامهما بعربة أطفال صغيرة وبداخلها وليدهما الجديد. وفى ذهول توقفت هى وزوجها يتابعان ما يحدث لأحمد فهمى الذى أصيب بالشلل من هول المفاجأة.

وتبادلت الأعين حوارًا صامتًا، ولكنه قاسيًا ومكلومًا.

وبلا تمهيد وجد نفسه محمولاً بلا إرادة إلى داخل صندوق السيارة، وقد أحاط به من الجانبين كلا الحارسين.

وانطلقت به السيارة، تاركة ورائها لحظة الانكسار ومقبرة كيانه الآدمى. ولم يعد فى مقدرته أن يتماسك أكثر من ذلك، فاستسلم لنزيف الدمع الذى تساقط بين عينيه وهو مقهورًا.. وفى

لحظة مباغتة تلقى لكزة قوية من الرجل الذى بجانبه وهو يصبح به قائلاً:

- تفعل فعلتك ثم تبكى الآن.. لا تعتمد على دموعك تلك.. فإنها لن تخدع سيادة الضابط.

و.. فى أثناء التحقيقات معه ازدادت الشكوك حوله، بعدما تم الكشف عن صحيفته الجنائية وتبين أنه قد أنهى فترة سجنه منذ وقت ليس ببعيد.

وحاصرته الأسئلة من كل جانب.. وكان عليه أن يثبت من أين أتى بالساعة وكان ذلك مستحيلاً لأن صاحبة الهدية هى هيفاء، والتى أصبحت هى الأخرى الآن نزيلة فى سجن النساء.

كانت ليلة كئيبة ومريرة، استقطبت فى عمرها الزمنى كل ألوان القهر والعذاب والمذلة والضياع، ولم ينقذه منها سوى ادعائه مضطرًا بأنه قد وجد الساعة ملقاة على قارعة الطريق فالتقطها طمعًا فى بيعها والاستفادة من قيمتها.

تحمل كلمات اللوم، والحديث عن الشرف والأمانة.. كان ذلك بالنسبة له أخف وطأة من انتظار الإجراءات الأخرى التى تؤكد مصداقية كلماته إذا ما ادعى شيئًا آخر غير الذى قاله.

وفى اليوم التالى، تحفظت الشرطة على الساعة، على أمل أن يسأل صاحبها الأصلى عنها .

و.. مرة ثانية يعود أحمد فهمى إلى الطريق سائرًا بخطى واهنة.. بلا هدف.

راح ينتقل من مكان إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى إلى أن قادته خطواته اللاإرادية إلى موقع مسكنه القديم بالزمالك.

رفع رأسه فى اتجاه البناء الشاهق، باحثًا عن موقع الشرفة التى طالما أطل منها متأملاً سطح النيل.. ثم عاد وأسقط بصره فى اتجاه ذلك النهر العظيم، وكأنه يتأكد من أنه هو ذاته الذى كان يراه من أعلى فى شرفته. شعر وكأنه يقف فوق ربوة عالية يطل من خلالها على كل الدنيا، كأنها كتاب يطوى ملايين الصفحات.

صور متلاحقة، ومشاعر متزاحمة.. أحلام تتحقق وآمال تنهار سلام وعداوات وصراعات.. بدايات ونهايات.. دموع وابتسامات.. وفاء وخيانات، صداقات زائفة، وعلاقات واهنة.

همس إلى ذاته متساءلاً :

.. أين الحقيقة ؟!

لماذا لا يموت العذاب، ولماذا دائمًا الألم أقوى من الأمل؟

كيف تموت الذكريات وهى فى وجداننا، وكيف تبقى فى وجدان الآخرين بعد موتنا !!

لا أحد يملك حتى ذكرياته.. لا أحد يملك أى شىء.

نحن فقط نشعر بوجودنا ولا نملك أكثر من ذلك.. هذه قدراتنا!!

ليتنى كنت أملك عمرى، لكنت منحت أمى جزءًا منه، لعلنى كنت أفلت من هذا اليتم المرير.

وأيضًا كنت أضفت جزءًا آخر لحياة عثمان النوبى، فربما استطاع من خلاله أن ينقذ أمثالى من الانهيار والسقوط.

ليتنى علمت مسبقًا أن الصراع بينى وبين واقعى هو غير متكافئ وغير منصف.

ليتنى كنت .. وليتنى لم أكن !!

آه لو كنت أملك عمرى، ما ترددت لحظة فى أن أمنح ما تبقى منه إلى كل من لديه القدرة والقوة والإرادة على مقاومة الشيطان وهزيمته وما ترددت أيضًا فى مقايضته بتحمل ذنوب الدنيا مقابل سحق ذلك اللعين.

.. يا إلهى.. أنقذنى من حيرتى، وقلة حيلتى، وأيقظنى من غفوتى، واشفق على محنتى.

واستدار مرة ثانية فى مواجهة البناء الشاهق أمامه، وعاد يبحث عن موقع الشرفة الخاصة به.. وبلا إرادة تحركت قدميه بخطى ثابتة، وسار نحو الاتجاه الثانى، ثم تسمر فجأة فى مكانه عند منتصف نهر الطريق. وبدأت السيارات المارقة بمختلف سرعاتها تحاول أن تتفاداه سواء من الناحية اليمنى أو الآتية من على يساره.

وهو ثابت فى مكانه، وكأنه أصيب بالصمم والعمى، وفقد القدرة على أى شىء.. وارتفعت أصوات آلات التنبيه، وتعالت صيحات قائدى السيارات وهو لا يدرى شيئًا عما يدور حوله.. أو لم يرغب فى أن يدرى!!

واحتوته حالة مثيرة ومبهمة، تضمنت أحداث الماضى والحاضر فى تداخل غريب، وانحصرت ذاكرته فى صورة القط البائس الذى تابعه يومًا من شرفة منزله.

و.. فى لحظةمباغتة صدمته سيارة عابثة ومستهترة، وأطاحت به إلى ارتفاع عدة أمتار، وسقط بعدها فوق الأرض يسبقه نزيف دمائه..

لحظة انتهت فيها حياته وتلاشى كل شىء من حوله ما عدا صورة القط التى استقرت فى عينيه جثة هامدة هى الأخرى. مات أحمد فهمى .. بعد أن ظل يبحث عن إجابة لسؤاله الحائر، وهو ما سر إصرار القط على الانتحار؟

مات أحمد فهمى.. بعد أن حاول المقايضة بما لا يملك.. فاسترد الله وديعته .

تمت

أحمد فريد

الإصدارات الروائية للأديب أحمد فريد

همسة وداع	نشرت في ليبيا	1972
الشك	نشرت في ليبيا	1973
خطوات بلا طريق	نشرت في ليبيا	1975
نبضات لا تموت	مطبعة النهضة بالقاهرة	1976
الحب وحده لا يكفي	دار غريب بالقاهرة	1980
ممر الذئاب - ثلاثة أجزاء		
دعني أحاول	دار غريب بالقاهرة	1982
عندما يبكي الرجال	دار غريب بالقاهرة	1983
لا تدمرني معك	دار غريب بالقاهرة	1984
يا صديقي كم تساوي	دار غريب بالقاهرة	1985
لن تسرق حبي	دار غريب بالقاهرة	1987
سامحني يا حب	دار غريب بالقاهرة	1990
الحب الكبير- ثلاثة أجزاء		
هو منتهى الحب	دار قباء بالقاهرة	1994
عمر عمري	دار قباء بالقاهرة	2001
كذبت عليك فصدقني	دار قباء بالقاهرة	2002
يا أنا لا ترحل عني	دار قباء بالقاهرة	2004
حب بلا مأوى	دار قباء بالقاهرة	2005
الحب بعد المساومة	دار قباء بالقاهرة	2006
لآلئ الوحل	دار قباء بالقاهرة	2007

- دار قباء أعادت طبع جميع الأعمال الروائية.
- حصل على جائزة مهرجان القاهرة السينمائى عام 1982 عن أحسن قصة لفيلم «الحب وحده .. لا يكفى».. إخراج على عبدالخالق .
- ترجمة رواية «الحب.. وحده.. لا يكفى» ورواية «عندما يبكى.. الرجال» إلى اللغة الصينية.
- تمت ترجمة رواية «هو منتهى الحب» إلى الإنجليزية.
- صدرت الطبعة الثالثة من رواية «هو منتهى الحب» فى كتاب الجمهورية (الأعمال التى تحولت إلى أفلام سينمائية).
- « الحب وحده .. لا يكفى ».. إخراج على عبد الخالق - سيناريو وحوار «مصطفى محرم».
- « عندما يبكى .. الرجال» .. إخراج حسام الدين مصطفى.. سيناريوم «مصطفى محرم» وحوار «بهجت قمر».
- « لا تدمرنى معك» إخراج محمد عبد العزيز .. سيناريو وحوار «أحمد صالح».
- «يا صديقى كم تساوى».. إخراج يوسف فرنسيس .. سيناريو وحوار «يوسف فرنسيس».
- عضو اتحاد الكتاب منذ بدايته.
- عضو نادى القصة .
- عضو الجمعية المصرية لكتاب ونقاد السينما.
- عضو رابطة الأدب الحديث.